إعجاز المسيح

بقلم:

سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني
المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

اسم الكتاب: إعجاز المسيح

الطبعة الحديثة: ١٤٣٢ هـ /٢٠١١م

I'jāzul-Masīḥ
(Arabic)

By: Ḥaḍrat Mirzā Ghulām Aḥmad (Peace be on him)***, the Promised Messiah and Mahdi, Founder of the Aḥmadiyya Muslim Jamā'at***.

First Published in UK in 2011 by:
Al-Shirkatul Islamiyyah Limited
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Tilford

ISBN: 1 85372 862 4

بسم الله الرحمن الرحيم

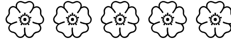
من سرّه ان يقرء الفاتحة مع معارفها المخفية - وحقائقها
الروحانية - فليقرء تفسيرنا هذا بالتدبر وصحة النية
ولا يحسر عن ساعده للمقابلة - فانه كتاب ليس له
جواب - ومن قام للجواب وتنمّر - فسوف يرى انه
تندم وتذمّر - فطوبى لمن همّ من ما اصطفيناه - واخذ
ما اعطيناه - وما كان كالذى لبس الصفاقة - وخلع
الصداقة - وهذا ردّ على الذين يجهّلوننا ويصبّغون
التلبيس - ويقولون ليس عندهم من علم بل عُصبةٌ
من مفاليس - وانّا اقررنا بانّ كتبنا كلّها من حول الله
ذى الجلال - وما نحن الا كالجهّال - وانّ كتابى
هذا بليغ - وفصيح وسليم -
وانى
سمّيته

اعجاز المسيح

وقد طُبع
فى مطبع ضياء الاسلام فى سبعين يومًا من شهر الصيام وكان من الهجرة سنة ١٣١٨
ومن شهر النصارى ٢٠ فرورى سنة ١٩٠١ - مقام الطبع قاديان ضلع گورداسپور باهتمام
قيمت عمر الحكيم فضل دين البهيروى - جلد ٧٠٠

صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم   نحمده ونصلي على رسوله الكريم

كلمة الناشر

في العشرين من تموز من عام ١٩٠٠ دعا سيدنا المسيح الموعود عليه السلام المشايخ المعاندين عامة، والمولويَ بير مهر علي شاه الغولروي خاصةً، إلى أن يبارزوه في كتابة تفسير باللغة العربية الفصيحة لأربعين آية من القرآن الكريم يتم اختيارها عن طريق القرعة، يبيّنون فيه معارفها وحقائقها في غضون سبع ساعات جالسين وجها لوجه في جلسة تُعقد في لاهور، ليميز الله تعالى بين الحق والباطل. فلم يقبل أحد هذا التحدي بمن فيهم بير مهر علي شاه أيضا، ولكنه جاء إلى لاهور دون أن يخبر المسيح الموعود عليه السلام بمجيئه، وقام بالدعاية كذبا وزورا ليخدع الناس أنه جاهز للمبارزة في كتابة التفسير. وعندما بدأ مريدوه يدقّون طبول الانتصار الزائف وكالوا لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام أبشع الشتائم ونشروا في الناس أن مرشدهم كان جاهزا للمبارزة ولكن الداعي إليها نفسه لم يأتِ إلى لاهور بل فرّ من المبارزة، نشر حضرته عليه السلام إعلانا بتاريخ ١٥ كانون الأول/

ديسمبر ١٩٠٠م (المنشور في كتابه الأربعين رقم ٤) واقترح فيه بناء على توجيه من الله ما تعريبه:

"إذا كان بير مهر علي قادرا على كتابة التفسير بالعربية الفصيحة، و لم يقصد خداع الناس فلا بد أن تكون هذه القدرة موجودة فيه الآن أيضا. فإني أستحلفه بالله أن يحقق طلبي بصورة كتابته تفسيرا لسورة الفاتحة لا يقلّ عن أربعة أجزاء باللغة العربية الفصيحة في تكذيب ما قدمت من الدعاوي، وأنا بدوري سأكتب تفسير هذه السورة بفضل الله وقوته باللغة العربية الفصيحة تأييدا لدعواي، ومسموح له أن يستعين بعلماء العالم كلهم، ويستدعي فصحاء العرب وبلغاءهم، ويطلب العلماء من لاهور وغيرها من البلاد، وأعطِيه مهلة سبعين يوما بدءا من ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٠م، ولن أزيد على هذه المهلة يوما واحدا. ولو حكم ثلاثة من أدباء العرب المعروفين بأن تفسيره منسجم ومتطلبات الفصاحة والبلاغة ومليء بالمعارف لأعطيتُه جائزة خمس مائة روبية نقدًا، ولأحرقت جميع كتبي، ولبايعت على يده، ولكن لو بدا الأمر على عكس ذلك و لم يقدر على كتابة أي شيء إلى نهاية مدة ستين يوما، فلا أطلب من أحدهم أن يبايعني، ولا أبغي النقود أيضا، وإنما سوف

أظهر كيف يكذب "مهر علي" مع كونه يُدعى مرشدا." (أربعين رقم ٤ الخزائن الروحانية ج١٧ ص٤٤٩-٤٥٠ الهامش)

فبحسب هذا الإعلان كتب حضرته بفضل الله وتأييده الخاص تفسيرَ سورة الفاتحة باللغة العربية الفصيحة والبليغة باسم "إعجاز المسيح" ونشره بتاريخ ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٠١م أي في الفترة المحددة، وبيّن الهدف من كتابة هذا التفسير ليبين كذب "بير مهر علي شاه" بأنه عالم بالقرآن الكريم وبأنه صاحب خوارق وكرامات وأنه يُسقى من عين المعرفة.

ولكن مع ذلك لم يتشجع "مهر علي شاه" على كتابة التفسير حتى جالسًا في بيته، وهكذا بِصَمْتِه المُطبِق اعترف بالهزيمة وختَم على جهله المطلق.

وكان سيدنا الإمام المهدي عليه السلام قد قال عن تفسيره بإعلام من الله: "فليأت بمثله، والصمتُ عليه حرام، وإن اجتمع آباؤهم وأبناؤهم، وأكفاؤهم وعلماؤهم، وحكماؤهم وفقهاؤهم، على أن يأتوا بمثل هذا التفسير، في هذا المدى القليل الحقير، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ كالظهير."

وقال عليه السلام أيضا: "دعوتُ الله أن يجعله معجزة للعلماء، ودعوتُ أن لا يقدر على مثله أحدٌ من الأدباء، ولا يُعطى لهم قدرة على

الإنشاء، فأجيبَ دعائي في تلك الليلة المباركة من حضرة الكبرياء، وبشّرني ربي وقال: "منَعه مانعٌ من السماء"، ففهمتُ أنه يشير إلى أن العدا لا يقدرون عليه، ولا يأتون بمثله."

فبحسب النبوءة تماما لم يتجاسر مهر علي الغولروي ولا غيره من أدباء العرب والعجم وفضلائهم على أن يأتوا بمثله. وقد كتب حضرته عليه السلام على ورقة الغلاف لهذا الكتاب بكل تحدٍّ أنه لكتابٌ فريد، فقال: "ومن قام للجواب وتنمّر فسوف يرى أنه تندّم وتذمّر."

ثم نشر "المولوي محمد حسين فيضي" في الناس أنه عازم على الرد على هذا الكتاب، فبدأ يكتب رؤوس الأقلام على حاشية الكتاب نفسه، وكتب في أحد المواضع: "لعنة الله على الكاذبين"، ثم لم يمض على ذلك أسبوع واحد حتى هلك. باختصار، ظهر كثير من آيات الله تعالى من خلال هذا الكتاب، وقد وردت تفاصيلها في كتابه "نزول المسيح".

ثمة أمور لا بد من التنويه إليها، وهي:

١- اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب على طبعته الأُولى المحفوظةِ حاليًا في مكتبةِ "الخلافة" المكتبةِ المركزية للجماعة بربوة، باكستان.

٢- إن أرقام الآيات القرآنية وأسماء سورها لم ترد في الأصل بل أُضيفت من قبل الناشر في الهامش. علمًا أن أرقام الآيات تبدأ باعتبار البسملة آية أولى من كل سورة وردت فيها.

ولا يسعنا هنا إلا أن نشكر ونطلب الدعاء للذين ساهموا في إخراج هذه الطبعة، وهم السادة الأفاضل: المرحوم مصطفى ثابت، تميم أبو دقة، هاني طاهر، خالد عزام، سيد عبد الحي شاه، مبشر أحمد كاهلون، جميل الرحمن رفيق، مرزا محمد الدين ناز، الحافظ مظفر أحمد، رانا تصور أحمد خانْ، رفيق أحمد ناصر، عبد الرزاق فراز، حفيظ الله بهروانه، نويد أحمد سعيد، فهيم أحمد خالد، محمد يوسف شاهد، عبد المجيد عامر، محمد أحمد نعيم، محمد طاهر نديم، وعبد المؤمن طاهر. جزاهم الله أحسن الجزاء، آمين.

ربِّ اجعلْه مباركًا ونافعًا للطُلاّب، وهاديًا إلى طريق الصواب، بفضلك يا مُجيبَ الداعين. آمين ثم آمين.

الناشر

مَن سَرَّه أن يقرأ الفاتحة مع معارفها المخفيّــة وحقائقهــا الروحانيّة، فليقرأْ تفسيرنا هذا بالتدبر وصحّة النيّــة، ولا يحسِرْ عن ساعده للمقابلة، فإنه كتاب ليس لــه جــواب، ومن قام للجواب وتنمّرَ، فسوف يرى أنه تندّمَ وتــذمّرَ. فطوبى لمن هَمَّنَ ما اصطفيناه، وأخذ ما أعطيناه، وما كــان كالذي لبِس الصفاقةَ وخلَع الصداقة. وهذا ردٌّ على الذين يجهِّلوننا ويصبِّغون التلبيسَ، ويقولون: ليس عندهم مِن علم بل عصبة مِن مَفاليسَ. وإنّا أقررْنا بأن كتبنا كلها مِن حول الله ذي الجلال، وما نحن إلا كالجهّال. وإن كتابي هذا بليغ وفصيح ومليح، وإني سمّيته:

إعجاز المسيح

الإعـــلان✪

نعلن للاطلاع العام أن الله تعالى قد وفّقني بفضله ورحمته لإتمـــام هذا الكتاب بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٠١م في سبعين يوما. والحـــق أن ذلك كله قد تمّ بفضله الخاص، إذ قد أُصبتُ خلالها بعدة أعـــراض وأمراض وكنت أخشى ألا أتمكَّن من إتمام هذا العمـــل إذ لم أعُـــدْ قادرا حتى على رفع القلم بسبب الضعف المتفاقم وهجوم الأمراض. وحتى لو كانت صحتي على ما يرام فأنا لا أملك أية قدرة ذاتية، إذ أعرف نفسي جيدا. وقد علمتُ لاحقًا السببَ وراء هذه الأمـــراض الجسدية، وهو أن لا يظن أحبّائي من الجماعة الموجودون هنا أنـــه نتاج قدراتي الفكرية. فقد أثبت الله تعالى بسبب هـــذه الأعـــراض والعراقيل أن هذا الكلام ليس من صنعِ قريحتي أو خاطري، بل الحق أن معارضيّ محقّون تماما في قولهم إن ذلك ليس من صُنْعه بل هناك مَن يساعده سرًّا. وإنني لأشهد أن هناك مَن يساعدني حقيقة، ولكنه ليس بَشرًا، بل هو ذلك القادر القدير الذي رؤوسُنا خاضعةٌ علـــى عتباته. فإذا كان أحد آخر أيضا قادرا على المساعدة في مثل هـــذه

✪ *لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام ملحقين بالأردية وألحقهما بهذا الكتاب العربي، أحدهما في بدايته والآخر في نهايته، وهذا تعريب ما ألحقه في بدايته. (اللجنة).*

الأمور ويملك قدرةً معجزةً فليتوقع القراء أن تُنشر - أو أن تكون قد نُشرت - خلال سبعين اليوم هذه مئات التفاسير لسورة الفاتحة، مماثلةً لتفسيري، وتكون وفق شروط وضعتُها، لأن هذه التفاسير قد اعتُبرت معيارا للحُكم بيننا. وإنني واثق بأن السيد "مهر علي شاه" يكون -بوجه خاص- قد بذل جهده حتمًا لكتابة التفسير في هذه المدة، وإلا فبأي وجه سيواجه أولئك الذين قال لهم بأنه حضر إلى "لاهور" بقصد كتابة التفسير فقط؟ ومن البديهي أنه إذا عجز عن كتابة التفسير في سبعين يوما فأَنَّى له أن يكتبه في سبع ساعات؟ فهذه آية عظيمة على التأييد الإلهي يشهدها المنصفون؛ لأني قد حددتُ مدة سبعين يوما ودعوت مئات المشايخ لمواجهتي، فكيف سيبرّرون عجزهم عن نشر مثل هذا التفسير؟ وإذا لم تكن هذه معجزة فما المعجزة إذن؟

● أيها الأحباب الذين تقرؤون "أُمَّ الكتاب"، تعالوا انظروا الآن إلى هذه الشمس بعينيّ

أمعِنوا النظر في دعاء "الفاتحة" بقراءتها مرارًا، فإنها تكشف لكم الحقيقة كلها

لقد علّمكم الله تعالى هذا الدعاء، وعلّمكموه حبيبه ﷺ أيضا

● *هذا تعريب أبيات باللغة الأردية سجلها هنا حضرته العَلَيْهِ السَلامُ. (اللجنة).*

تقرؤونها في الصلوات الخمس كل يوم، ومن خلالها تـــصِلون إلى بلاط ذلك الصمد عَزَّ وَجَلَّ

أُقسم بالله الذي أنزل هذه السورة على صاحب القلب الطاهر ذي الوجه الجميل

إنها شاهدة لي من ربي، وهي ختم إلهي على صدق دعوايَ

وهي دليل قاطع على أني أنا المسيح الموعود، وهي شاهدة لي من الرب الجليل

فمَن الذي تنتظرونه بعدي إذن؟ توبوا فلا ضمان للحياة.

الكاتب، العبد المتواضع ميرزا غلام أحمد القادياني

٢٠ شباط/فبراير ١٩٠١م◈

◈ *انتهت إلى هنا الترجمة العربية للملحق بالأردو، ويليها النص العربي للكتاب "إعجاز المسيح" الذي يستمر حتى الصفحة ١٠٣. (اللجنة)*

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

الحمد لله الذي أنطقَ الإنسانَ، وعلّمه البيانَ، وجعل كلامَ البشر مَظهَرَ حسنِه المستتر، ولطَّف أسرارَ العارفين بإلهامه، وكمّل أرواح الروحانيين بإنعامه، وكفَل أمرهم بعنايته، واستودعهم ظِلَّ حمايته، وعادى مَن عادى أولياءه وما غادرهم عند الأهوال، وسمع دعاءهم إذا أقبلوا عليه كل الإقبال، وأرى لهم غيرتَه وصار لهم كقَسْوَرةٍ للأشبال، ولوَى إليهم كزافرةٍ في مواطن الجدال، وما زايَلَهم في موقف وما نسِيهم عند الابتهال، وألزمهم كلمة التقوى، وثبّتهم على سُبل الهدى، وجذَبهم إلى حضرته العُليا، ووهب لهم أعينًا يبصرون بها، وقلوبًا يفقهون بها، وجوارحَ يعملون بها، وجعَلهم حِرْزَ المخلوقين وروحَ العالمين. والسلام والصلاة على رسولٍ جاء في زمن كان كدَسْتٍ غاب صدره، أو كلَيْلٍ أفَل بدره، وظهر في عصر كان الناس فيه يحتاجون إلى العُصْرة، وكانت الأرض أمحلتْ وخلَتْ راحتُها مِن بخل المُزْنة، فأروى الأرضَ التي احترقت لإخلاف العِهاد، وأحيا القلوب كإحياءِ الوابل للسَنةِ الجَمادِ، فتهلّلَ الوجوه وعاد حِبْرُها وسِبْرُها، وتراءتْ معادنُ الطبائع وظهرت فضّتُها وتِبْرُها، وطُهّر المؤمنون من كل نوعِ الجُناح، وأُعطوا جَناحًا يطير إلى السماء

بعد قصّ هذا الجَناح، وأُسِّسَ كلّ أمرهم على التقوى، فما بقي ذرّةٌ من غير الله ولا الهوى، وطُهّرتْ أرض مكّة بعد ما طِيفَ فيها بالأوثان، فما سُجد على وجهها لغير الرحمن، إلى هذا الأوان. فصلّوا على هذا النبي المحسن الذي هو مظهر صفات الرحمن المنّان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. والقلب الذي لا يدري إحسانه، فلا إيمان له أو يضيع إيمانه. اللهم صلّ على هذا الرسول النبي الأُمّي الذي سقى الآخرين كما سقى الأوّلين، وصبّغهم بصِبغ نفسه وأدخلهم في المطهّرين. فنوّرهم الله بإشراق أشعّة المحبّة، وسقاهم من أصفى المُدامة، وألحقَهم بالسابقين من الفانين، وقرّبهم وقبل قربانَهم، ودقّق مشاعرهم وجلّى جنانهم، ووهب لهم من عنده فَهْمَ المقرّبين، وزكّى نفوسهم وصفّى ألواحهم، وحلّى أرواحهم، ونجّى نفوسهم من سلاسل المحبوسين، وكفَل أمورهم كما هي عادته بأصفيائه، وشرح صدورهم كما هي سيرته في أوليائه، ودعاهم إلى حضرته، ثم تبادرَ إلى فتح الباب برحمته، وأدخلهم في زمرته، وألحقَهم بسكّان جنّته، وقيل: دارَكم أتيتم، وأهلَكم وافيتم، وجُعلوا من المحبوبين. وهذا كله من بركات محمدٍ خيرِ الرسل وخاتم النبيين، عليه صلوات الله وملائكته وأنبيائه وجميع عباده الصالحين.

أما بعد.. فاعلموا أيها الطالبون المنصفون، والعاقلون المتدبّرون، أني عبد من عباد الرحمن، الذين يجيئون من الحضرة، وينـــزلون بأمر ربّ العزّة، عند اشتداد الحاجة، وعند شيوع الجهلات والبدعات وقلّة التقوى والمعرفة، ليجدِّدوا ما أخْلَقَ، ويجمعوا ما تَفرّقَ، ويتفقّدوا ما افتُقِدَ، ويُنجِزوا ويُوفوا ما وُعِدَ من رب العالمين، وكذلك جئتُ وأنا أوّل المؤمنين.

وإني بُعثت على رأس هذه المائة المباركة الربّانية، لأجمع شَمْلَ المِلّة الإسلامية، وأدفع ما صِيلَ على كتاب الله وخيرِ البريّة، وأكسر عصا مَن عصى وأقيم جدران الشريعة. وقد بيّنتُ مرارًا وأظهرتُ للناس إظهارًا، أني أنا المسيح الموعود والمهدي المعهود، وكذلك أُمرتُ وما كان لي أن أعصي أمر ربي وألحَقَ بالمجرمين. فلا تعجَلوا عليّ وتَدبّروا أمري حق التدبّر إن كنتم متّقين، وعسى أن تكذّبوا امرَأً وهو من عند الله، وعسى أن تفسّقوا رجلاً وهو من الصالحين. وإن الله أرسلني لأصلح مفاسد هذا الزمن، وأفرّق بين روض القدس وخَضْراءِ الدِّمَن، وأُرِيَ سبيل الحق قومًا ضالين. وما كان دعواي في غير زمانه، بل جئتُ كالربيع الذي يمطر في إبّانه، وعندي شهادات من ربي لقوم مستَقْرين، وآياتٌ بيّنات للمبصرين، ووجهٌ

كوجه الصادقين للمتفرّسين. وقد جاءت أيام الله وفُتحتْ أبواب الرحمة للطالبين، فلا تكونوا أوّل كافرٍ بها وقد كنتم منتظرين.

أين الخفاء؟ فافتحوا العين أيها العقلاء، شهدتْ لي الأرض والسماء، وأتاني العلماء الأمناء، وعرَفني قلوب العارفين، وجرى اليقين في عروق قلوبهم كأقْرِيةٍ تجري في البساتين. بيد أن بعض علماء هذه الديار ما قبلوني من البخل والاستكبار، فما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم حسدًا واستعلاءً، ورضُوا بظلمات الجهل وتركوا علمًا وضياءً. فتراكمَ الظلام في قولهم وفعلهم وأعيانهم، حتى اتخذ الخفافيش وَكْرًا لجنانهم، وما قعد قارِيةٌ على أغصانهم. وكانوا من قبل يتوقعون المسيح على رأس هذه المائة، ويترقّبونه كترقُّب أهلّةِ الأعياد أو أطايبِ المأدبة، فلما حُمَّ ما تَوقَّعوه، وأُعطيَ ما طلبوه، حسبوا كلام الله افتراء الإنسان، وقالوا: مفتري يُضلّ الناسَ كالشيطان، وطفِقوا يشكّون في شأنه بل في إيمانه، وكذّبوه وفسّقوه وكفّروه مع مُريديه وأعوانه. وأنزل الله كثيرا من الآيِ فما قبلوا، وأرى التأييدَ في المَبادئ والغايِ فما توجّهوا، وقالوا كاذب وما تَفكّروا في مآل الكاذبين، وقالوا مختلِق وما تَذكّروا مَن دَرَجَ من المختلقين.

والأسف كل الأسف أنهم يقولون ولا يسمعون، ويعترضون ولا يُصغُون، ويلمِزون ولا يحقّقون، وحصحص الحق فلا يبصرون، وإذا رموا البريءَ بأَفِيكةٍ فضحكوا وما يبكون. ما لهم لا يخافون، أم لهم براءة في الزُبُر فهم لا يُسألون؟ وما أرى خوفَ الله في قلوبهم بل هم يؤذون الصادقين ولا يبالون. ما أرى فِناءَ صدورهم رَحْبًا، وكمثلهم اختاروا صَحْبًا، ويهمِزون ويغتابون وهم يعلمون. ولا يتكلمون إلا كطائر يخذُق، أو كمسلول يبصُق، لا يبطُنون أمرنا، ولا يعرفون سرَّنا، ثم يكفرون ويسبّون ويهذِرون مِن غير فهم الكتاب، ولا كهريرِ الكلاب. وما بقي فيهم فهمٌ يهديهم إلى صراطٍ مستقيم، ولا خوف يجذبهم إلى سُبل مرضاة الله الرحيم. ومنهم مقتصدون، يكذّبون ولا يعلمون، وبعضهم يكفّون الألسنة ولا يسبّون، وتجد أكثرهم مفحِشين علينا ومكفّرين سابّين غيرَ خائفين.

فليَبْكِ الباكون على مصيبة الإسلام، وعلى فتن هذه الأيام. وأيّ فتنة أكبر من فتن هذه العلماء، فإنهم تركوا الدين غريبا كشهداء الكربلاء. وإنها نار أذابت قلوبنا، وجنّبتْ جنوبَنا، وثقّلتْ علينا خطوبنا، ورمتْ كتاب الله بأحجار من جهلات الجاهلين. وترى كثيرا منهم يُخفون الحق ولا يجتنبون الزُور كالصلحاء، وتكذب ألسنتهم عند الإفتاء. غشّوا طبائعهم بغواشي الظلمات، وقدّموا حَبَّ

الصِلات على حُبّ الصَلاة. نبذوا القرآن وراء ظهورهم للدنيا الدنيّة، وأمالوا طبائعهم إلى المقنيّات الماديّة. واشتدّ حرصُهم وهمتُهم وشغفُهم باللذّات الفانية، وجاوز الحدَّ شحُّهم في الأماني النفسانية. ما بقي فيهم علمُ كتاب الله الفرقان، ولا تقوى القلوب وحلاوة الإيمان. وتَباعدوا من أعمال البر وأفعال الرشد والصلاح، وانتقلوا من سُبل الفلاح إلى طرق الطلاح. وعاد جَمْرُهم رمادًا، وصلاحهم فسادًا. بعُدوا من الخير والخيرُ بعُد منهم كالأضداد، وصاروا لإبليس كالمقرَّنين في الأصفاد، وانجذبوا إلى الباطل كأنهم يُقادون في الأقياد. يخونون في فتاواهم ولا يتقون، ويكذّبون ولا يبالون، ويقرُبون حرماتِ الله ولا يبعُدون، ولا يسمعون قول الحق بل يريدون أن يسفكوا قائله ويغتالون. ولما جاءهم إمام بما لا تهوى أنفسهم أرادوا أن يقتلوه وهم يعلمون. وما كان لبشر أن يموت إلا بإذن الله فكيف المرسَلون؟ إنه يعصم عباده من عنده ولو مكر الماكرون. يقولون نحن خدام الإسلام وقد صاروا أعوانًا للنصارى في أكثر عقائدهم، وجعلوا أنفسهم كحِبالةٍ لصائدهم. يقولون سمعنا الأحاديث بالأسانيد، ولا يعلمون شيئا من معنى التوحيد. ويقولون نحن أعلمُ بالأحكام الشرعية، وما وطئتْ أقدامهم سِكَكَ الأدلّة الدينية. يطيرون في الهوى كالحَمام، ولا يفكّرون في ساعة الحِمام. يسعون

لحطامٍ بأنواعِ قلقٍ، ويُخرِجون كأهل النفاق رؤوسَهم مِن كلّ نفقٍ. يقعون من الشحّ على كل غضارة، ولو كان فيه لحم فأرة. إلا الذين عصمهم الله بأيدي الفضل والكرامة، فأولئك مبرَّأون مما قيل وليس عليهم شيء من الغرامة، وإنهم من المغفورين.

ومن الفتن العظمى والآفات الكبرى صولُ القسوس بقِسِيِّ الهَمْزِ واللَمْزِ كالعَسوس. وكلّ ما صنعوا لجرحِ ديننا من النِّبال والقِياس، بنَوه على المكائد كالصائد لا على العقل والقياس. نبذوا الحقّ ظِهْرِيًّا، وما كتبوا فيما دوّنوه إلا أمرًا فَرِيًّا. وقد اجتمعتْ هممُهم على إعدام الإسلام، واتفقت آراؤهم لمحو آثار سيدنا خيرِ الأنام. يدعون الناسَ إلى اللظى والدَّرْك، ناصبين شَرَكَ الشِرْك. وما وجدوا كيدًا إلا استعملوه، وما نالوا جهدًا إلا بذلوه. استحرّتْ حربُهم، وكثر طعنهم وضربهم، ونعَرتْ كُوساتُهم، وصاحت مِن كل طرف بُوقاتُهم، وجالت خيولهم، وسالت سيولهم، وسعوا كل السعي حتى جمعوا عساكر الإلحاد، ورفعوا راياتِ الفساد. وصُبّتْ على المسلمين مصائبُ وخُرّبتْ تلك الربوع، وأُهْديتْ لسُقياها الدموع، وكثُر البدعة، وما بقِي السُنّة ولا الجماعة، ورُفع القرآن وضاقت عن صَونه الاستطاعة.

فحاصل الكلام أن الإسلام مُلِئَ من الآلام، وأحاطت به دائرة الظلام، وأَرَى الزمانُ عجائب في نقضِ أسواره، وأسال الدهرُ سيولا لتعفية آثاره، وأكمل القدر أمره لإطفاء أنواره. ولما كان هذا مِن المَشِيّة الربانية، مَبْنيًّا على المصالح الخفيّة، فما تطرّقَ إلى عزم العِدا خللٌ، ولا إلى أيديهم شللٌ، ولا إلى ألسنتهم فللٌ. وكان من نتائجه أن المِلّة ضعفتْ، والشريعة اضمحلّتْ، وجرَفتْها المجارف، حتى أنكرها العارف، وكثر اللغو وذهب المعارف. باخت أضواؤها، وناءت أنواؤها، ودِيسَ المِلّةُ وطالت لَأْواؤُها. وكان هذا جزاءَ قلوبٍ مقفَّلة، وأثامَ صدورٍ مغلَّقة. فإن أكثر المسلمين فقدوا تقواهم، وأغضبوا مولاهم، وترى كثيرا منهم شغَفهم حبُّ الأموال والعَقار والعِقيان، ومَلَكَ فؤادَهم هوى الأملاك والنسوان، وقلَّب قلوبَهم لوعةُ إِمْرتِها فشُغلوا بها عن الرحمن. وترى أكثرهم اعتضدوا قِرْبَةَ الملحدين، وانقادوا كقَؤُودٍ لسيرِ الكافرين. وحسبوا أن الوصلة إلى الدولة طرقُ الاحتيال أو القتال، وزعموا أن النَبالة لا يحصل إلا بالنِبال، فليس عندهم تدبيرُ تأييدِ الملّة مِن غير سفك الدماء بالمرهَفات والأسنّة، ويستَقْرون في كل وقت مواضعَ الجهاد، وإنْ لم يتحقق شروطه ولم يأمر به كتابُ ربّ العباد. ومن المعلوم أن هذا الوقت ليس وقتَ ضرب الأعناق لإشاعة الدين، ولكل وقتٍ حُكم

آخر في الكتاب المبين، بل يقتضي حكمةُ الله في هذه الأوقات، أن يؤيَّد الدينُ بالحجج والآيات، وتُنقَد أمورُ المِلّة بعين المعقول، ويُمعَن النظرُ في الفروع والأصول، ثم يُختار مسلكٌ يهدي إليه نورُ الإلهام ويضعه العقلُ في موضع القبول، وأن يُعَدَّ عُدّةٌ كمثل ما أعدَّ الأعداء، ويُفَلَّ السيفُ ويُحَدَّ الدهاءُ، ويُسلَك مسلَكُ التحقيق والتدقيق، وتُشرَب الكأسُ الدِهاقُ من هذا الرحيق. فإن أعداءنا لا يسُلّون النواحلَ للنِحْلة، ولا يُشيعون عقائدهم بالسيوف والأسنّة، بل يستعملون ما لطُف ودقَّ من أنواع المكائد، ويأتون في صور مختلفة كالصائد. وكذلك أراد الله لنا في هذا الزمان، أن نكسر عصا الباطل بالبرهان لا بالسِنان، فأرسلني بالآيات لا بالمرهَفات، وجعل قلمي وكلِمي منبعَ المعارف والنكات، وما أعطاني سيفًا وسنانًا، وأقام مقامهما برهانًا وبيانًا، ليجمع على يدي الكلِمَ المتفرّقة، وينظم بي الأمور المتبدّدة، ويسكِّن القلوب الراجفة، ويبكِّت الألسنة المرجِفة، وينير الخواطر المظلمة، ويجدّد الأدلة المُخْلِقة، حتى لا يبقى أمر غير مستقيم، ولا نهج غير قويم.

فحاصل القول.. إن البيان والمعارف من معجزاتي، وإن مرهفاتي آياتي وكلماتي. وكنت دعوت بعض أعدائي لإراءة هذه المعجزة، لعل الله يشرح صدورهم أو يجعل لهم نصيبًا من نور المعرفة، فقلت

إن كنتم تنكرون بإعجازي، وتصولون عليّ كالغازي، وتظنون أنكم أُعطيتم علم القرآن وبلاغةَ سحبان، فتعالوا ندعُ شهداءنا وشهداءكم، وعلماءنا وعلماءكم، ثم نقعد مقابلين، ونكتب تفسير سورةٍ مرتجِلين، منفردين غير مستعينين. فما كان أحدٌ منهم أن يقبل الشرط المعروض، ويتّبع الأمر المفروض، ويقعد بحذائي، ويُملي التفسير كإملائي، بل جعلوا يكيدون ليطفئوا النور، ويكذّبوا المأمور. وكان أحدٌ منهم يقال له "مهر عليّ"، وكان يزعم أصحابُه أنه الشيخ الكامل والوليّ الجليّ، فلما دعوته بهذه الدعوة، بعد ما ادّعى أنه يعلم القرآن وأنه من أهل المعرفة، أبى مِن أن يكتب تفسيرا بحذاء تفسيري، وكان غبيًّا ولو كان كالهمذاني أو الحريري، فما كان في وسعه أن يكتب كمثل تحريري. ومع ذلك كان يخاف الناسَ، وكان يعلم أنه إنْ تخلّفَ فلا غلبة ولا جِحاسَ، فكاد كيدًا وقال إني سوف أكتب التفسير كما أُشيرَ، ولكن بشرط أن تباحثني قبله بنصوص الأحاديث والقرآن، ويُحكّم مَن كان لك عدوًّا وأشدَّ بُغضًا من علماء الزمان*، فإنْ صدّقني وكذّبك بعد سماع البيان، فعليك أن تبايعني بصدق الجنان، ثم نكتب التفسير ولا نعتذر ونترك الأقاويل، وإنّا قبلنا شرطك وما زدنا إلا القليل. هذا ما كتب إليّ

* أراد مِن ذلك الرجل محمد حسين البتالوي. منه.

وطبعه وأشاع بين الأقوام، واشتهر أنه قبِل الشرائطَ وما كان هذا إلا كيدًا لإغلاط العوام. ولما جاءني مكتوبه المطبوع وكيده المصنوع، قلت إنّا لله ولعنتُ ما أشاع، وتأسّفتُ على وقتٍ ضاع. ثم إنه استعمل كيدًا آخر، ورحل من مكانه وسافر، ووصل لاهورَ، وأثار النقع كالثور، وأرجفت الألسنةُ أنه ما جاء إلا ليكتب التفسير في الفور. فلمّا رأيت أنهم حسبوا الدودةَ ثعبانا، والشوكة بستانا، قلتُ في نفسي أن نذهب إلى لاهور فأيّ حرجٍ فيه، لعل الله يفتح بيننا ويسمع الناس ما يخرج من فينا وفيه. فشاورتُ صَحْبتي في الأمر، وكشفتُ عندهم هذا السر، واستطلعتُ ما عندهم من الرأي، وسردتُ لهم القصة من المَبادئ إلى الغاي، فقالوا لا نرى أن تذهب إلى لاهور، وإنْ هو إلا محلّ الفتن والجور، وقد تبيّن أنه ما قبِل الشروط، وأرى الضمورَ والمُقُوطَ، وتَشَحَّطَ بدمه وما رأى سبيل الخلاص إلا الشُّحوطَ، وهَمَطَ وغَمَطَ، وما ذبح كَبْشَ نفسه وما سَمَطَ وما قَمَطَ، وإنا سمعنا أنه ما جاء بصحة النيّة، وليس فيه رائحة من صدق الطويّة، هذا ما رأينا والأمر إليك، والحق ما أراك الله وما رأيت بعينيك. وكذلك كانت جماعتي يمنعونني ويردَعونني، ويُصرّون عليّ ويكُفّونني، حتى تلوّيتُ عما نويتُ، وحُبّب إليّ رأيهم فقبِلتُ وما أبيتُ، وتركتُ ما أردتُ، وطويتُ الكشح عما قصدتُ. ثم

طفق المخالفون يمدحونه على فتح الميدان، ويطيّرونه مِن غير جناح العرفان، وكانوا يكذبون ولا يستحيون، ويتصلّفون ولا يتّقون، ويفترون ولا ينتهون، وينسبون إليه بحارَ محامدَ ما استحقَّها، وأبكارَ معارفَ ما استرقَّها. وكانوا يسبّونني كما هي عادة السفهاء، ويذكرونني بأقبح الذكر وبالاستهزاء. ويقولون إن هذا الرجل هاب شيخَنا وخافَ، وأكله الرعب فما حضر المصافَّ، وما تخلّفَ إلا لخطبٍ خشَّى وخوفٍ غَشَّى، ولو بارزَ لكلَّمه الشيخُ بأبلغ الكلمات، وشَجَّ رأسه بكلام هو كالصَفاة في الصِفات. وكذلك كانوا يهذِرون، ويستهزئون بي ويسبّون.

ووالله لا أحسب نفسي إلا كمَيْتٍ تُرِّبَ، أو كبيتٍ خُرِّبَ، والناس يحسبونني شيئًا ولستُ بشيء، وما أنا إلا لربّي كفَيْءٍ، وما كان لي أن أبارز وأدعو العِدا، ولكنّ الله أخرجني لهذا الوَغى، وما رميتُ إذ رميتُ ولكن الله رمى. ولي حِبٌّ قدير وإعانتُه تكفيني، ومِتُّ فظهر الحِبُّ بعد تجهيزي وتكفيني، ووهب لي بعد موتي كلامًا كالرِياض، وقولاً أصفى من ماء يسيح في الرَضْراض، وحجّةً بالغة تلدَغ الباطل كالنَضْناض، وكلُّها من ربي وما أنا إلا خاوِي الوِفاضِ، وأُمرتُ أن أنفق هذه الأموال على الأوفاض، وأنْ أرُمَّ جدران الإسلام قبل الانقضاض. ومَن بارزني فقد بارز اللّٰه رب العالمين، وما

جئتُ إلا بزيٍّ المساكين، وما أحِيْزُ حَزْنًا مِن حَولي، ولا بَطْنًا من جَولي، بل معي قادرٌ يواري عِيانَه، ويُري برهانَه، فلأجل ذلك تحامت العِدا عن طريقي، وقُطّعت النحورُ والأعناق من مِنْجَنِيقي، وما لأحد بمقاومتي يَدانِ، ويدي هذه تعمل تحت يد الله الرحمن. نزلتْ عليّ بركات هي حِرْزٌ للصالحين، فجمعتُ بها لنفسي التحصينَ والتحسين.

ومن نوادر ما أُعْطِيَ لي من الكرامات، أن كلامي هذا قد جُعل مِن المعجزات. فلو جهّز سلطانٌ عسكرًا من العلماء، ليبارزوني في تفسير القرآن ومُلَحِ الإنشاء، فواللهِ إني أرجو من حضرة الكبرياء أن يكون لي غلبةٌ وفتحٌ مبينٌ على الأعداء. ولذلك بثثتُ الكتبَ وأشعتُ الصحف النُخَبَ في الأقطار، وحثثتُ على هذا المصارعة كلَّ مَن يزعم نفسه من أبطال هذه المضمار، وما كان لأحد من علماء هذه الديار أن يبارزني فيما دعوتُهم بإذن الله القهّار.

فما أنت وما شأنك أيها المسكين الجولرويّ؟ أتتغاوى عليّ بأخلاط الزمر وأوباش الناس أيها الغويّ؟ أيها الغافل.. اعلم أن السماء أهدتْك إليّ لتكون نموذجَ عبرةٍ في الأرضين، وقادَك إليّ القدرُ ليُري الناسَ ربي قدرَ المقبولين. وإنّا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المنذَرين. أيها المسكين.. لا تقُلْ غيرَ الصدق، ولا تشهد لغير الحقّ،

واتّق الله ولا تكُنْ من المجترئين. أأنت تجد في نفسك قدرة على تفسير القرآن، برعايةِ مُلَحِ الأدب ولطائف البيان؟ سبحان ربي! إنْ هذا إلا كذب مبين. وأنت تعلَم مبلَغَ علمك وتعلَم مَن معك ومن تبعك، ثم تدّعي الفضل كالماكرين. ويعلم العلماء أنك لست رجلَ هذا الميدان، ولكنهم يكتُمون عُوارَك كما يُكتَم الداء الدخيل ويُسعَى للكتمان. فحاصل الكلام.. أنك لست أهل هذا المقام، وما علّمك الله العلمَ والأدب مِن لدنه موهبةً، وما اقتنيتَ المعارف مكتسَبةً، ومع ذلك لما حللتَ لاهورَ، ادّعيتَ كأنك تكتب التفسير في الفور، تعاميتَ أو ما رأيتَ عند غلوائك، وفعلتَ ما فعلت وسدرتَ في خيلائك، وخدعتَ الناس بأغلوطاتك، ولوّنتهم بألوانِ خزعبيلاتك، وخدعتَ كلّ الخدع حتى أجاح القومَ جَهَلاتُك، وأهلك الناسَ حَيَواتُك. ثم ما تركتَ دقيقة من الإغلاظ والازدراء، وتفرّدتَ في كمال الزراية والسب والهذر والاستهزاء. وما قصدتَ لاهور إلا لطمعٍ في محامد العامّة، ولتُعَدَّ في أعينهم مِن حُماة المِلّة، ومِن مُواسِي الدينِ ومُعالِجي هذه الغُمّةِ ببذل المال والهمّة، ولعلك تأمَنُ بهذا القدر حصائدَ الألسنة، ولا تُرهَق بالتَبِعة والمَعْتَبة، وليحسب الناسُ كأنك منـــزَّه عن مَعرّة اللَكَن، ولستَ كعِنِّينٍ في رجال اللَسَنِ، وليظنَّ العامةُ الذين هم كالأنعام، أنك رُزقتَ مِن كلّ

علم وأُنعمتَ من أنواع الإنعام، وأُعطِيتَ بصيرةً تُدرِك منتهى العرفان، وإصابةً تُكمّل دائرةَ البيان، وفهمًا كفهمِ ذَوّادٍ عن الزيغ والطغيان، وعقلاً كبازي يصيد طير البرهان، ونطقًا مؤيَّدًا بالحجج القاطعة المنيرة، ونفسًا متحلّيةً بأنواع المعارف وحسن السريرة، وتوفيقًا قائدًا إلى الرشد والسَّداد، وإلهامًا مُغْنِيًا عن غيرِ ربّ العباد. ثم ما بقي منك مِن تحميدك، كمَّله صَحْبُك في تأييدك، وأُنشِدَ الأشعار في ثنائك، وما تُرِكَ دقيقةٌ في إطرائك، ثم سبّوني وحقّروني بعد رفعك وإعلائك، وكانوا لا يلاقون أحدًا ولا يوافون رجلاً إلا ويذكرونني عندهم استخفافا، وأكلوا لحمي بالغِيبة فما أكلوا إلا سُمًّا زُعافًا.

فلمّا بلغتْ إهانتهم منتهاها، وكَلَّمَني كَلِمُهم بمُداها، ووصل الأمر إلى مَداها، ورأيتُ أنهم جاروا كل الجَور، وأثاروا كالثور، وتركوا طريق الإنصاف، وسلكوا مسلك الاعتساف، وكثُر الهذَر والهذَيان، ومُلِئتْ بكلمات السبّ القلوبُ والآذان، وتاهت الخيالات وكُذّبت المعارف وصُدّقت الجهلات، أُلقِيَ في رُوعي أن أنجّي العامّةَ من أغلوطاتهم، وأُطفئ بقولٍ فَيْصلٍ ما سعّروا بتُرّهاتهم، وأكتب التفسيرَ وأُرِيَ الصغيرَ والكبير أنهم كانوا كاذبين. وما حملني على ذلك إلا قصدُ إفشاءِ كذبِ هذا المكّار، فإنه مكَر مكرًا كُبَّارًا، وأظهر كأنه

من العلماء الكبار، وادّعى أنه يعلم القرآن وفاق الأقران، وحان أن يغلِبَ ويُعانَ.

والغرض من تفسيري هذا تفريق الظلام والضياء، وإراءةُ تضوُّعِ المسكِ بحذاءِ جيفة البَيداء، وإظهارُ خَدْعِ الخادعِ ومواساةُ الرجال والنساء، والاشفاقُ على العُمْي ومُتّبعي الأهواء، وقضاءُ خَطْبٍ كان كحقٍّ واجبٍ ودَينٍ لازمٍ لا يسقط بدون الأداء. فهذا هو الأمر الداعي إلى هذه الدعوة، مع قلّة الفرصة، ليكون تفسيرُ الفرقان فرقانًا بين أهل الهدى وأهل الضلالة. ولولا التصلّف وتطاوُلُ اللسان وإظهارُ شجاعة الجنان من هذا الجبان، لمررتُ بلَغْوِه مرور الكرام، وما جعلتُه غرضَ السهام، ولكنه هتَك سِتْرَه بيديه، فكان منه ما ورد عليه. وإنه كذب كذبًا فاحشا وما خافَ، بل خدع وزوَّر وأغرى عليّ الأجلافَ، وزعم نفسه كأنه صاحبُ الخوارق والكرامات، وعالِمُ القرآن وشارِبُ عينِ العرفان ومالِكُ الدقائق والنكات. فوجب علينا أن نُرِيَ الناس حقيقةَ ما ادّعاه، ونُظهِرَ ما أخفاه، ولولا الامتحان، لصعب التفريق بين الجماد والحيوان. وكنتُ أقدِر أن أُرِيَ ظالِعَه كالضليع وحُمُرَه كالأفراس، ولكن هذا مقام العَماس لا وقتَ عفوِ عِثار الناس. والمتكبّر ليس بحَرِيٍّ أن يقال عِثارُه وستر* عُواره.

---

* *سهو، والصحيح: يُستَر. (اللجنة).*

وكذلك لا يليق به أن يُعرِض عن ذلك الخصام ويستقيل من هذا المقام، مع دعاوي العلم وكونِه من العلماء الكرام، بل ينبغي أن يُسبَر عقلُه، ويُعرَف حقله، وقد ادّعى أنه صبّغ نفسَه بألوان البلاغة كجُلودٍ تُحلَّى بالدِباغة، فإن كان هذا هو الحق ومن الأمور الصحيحة الواقعة، فأيُّ خوف عليه عند هذه المقابلة، بل هو مَحَلُّ الإبشار والفرحة، لا وقت الفزَع والرِعْدة، فإن كمالاتِه المخفيّةَ تظهَر عند هذا الامتحان والتجربة، ويرى الناسُ كلهم ما كان له مستورًا من الشأن والرتبة. ومن المعلوم أن قيمة المرء الكامل يزيد عند ظهور كماله، كما أن البئر يُحَبُّ ويُؤْثَر عند شربِ زُلاله. ولا يخفى أن القادر على تفسير القرآن، يفرح كلَّ الفرح عند السؤال عن بعض معارف الفرقان، فإنه يعلم أن وقت إشراقِ كوكبه جاء، وحان أن يُعرَف ويُخزَى الأعداء، فلا يحزن ولا يغتمّ إذا دُعِيَ لمقابلة ونُوديَ لمناضلة، بل يزيد مسرّةً ويحسبها لنفسه كبشارة، أو كتفاؤُلٍ لإمارة، فإن العالم الفاضل لا يُقدَر حق قدره، إلا بعد رؤية أنوار بدره، ولا يخضَع له الأعناقُ بالكلّية إلا بعد ظهور جواهره المخفيّة.

وإنّا اخترنا الفاتحة لهذا الامتحان، فإنها أُمُّ الكتاب ومفتاح الفرقان، ومنبعُ اللؤلؤ والمرجان، وكوُكْنةٍ لطير العرفان. وليكتبْ كلٌّ منّا تفسيرها بعبارة تكون من البلاغة في أقصاها، وتنير القلبَ

وتضاهي الشمسَ في بعض معناها، ليرى الناسُ مَن اقتعدَ منّا غاربَ الفصاحة، وامتطى مطايا الملاحة، وليُعرَفَ أريبٌ حداه العقلُ إلى هذا الأَرَب، ويُعلَم أديبٌ ساقه الفهم إلى رياض العرب، وليُضمِّرَ كلٌّ منّا لهذا المراد كلَّ ما عنده من الجِياد، ويفري كلَّ طريق من الوِهاد والنِجاد، بزاد اليَراعِ والمِداد، ليشاهد الناسُ مَن تُداركه العناية الإلهية، وأخَذ بيده اليدُ الصمديّة. ومَن كان يزعم نفسه أنه هو العالم الربّاني، فليس عليه بعزيز أن يكتب تفسير السبع المثاني، مع رعايةِ مُلَحِ الأدب وشواردِ المعاني.

ثم إني أرخيتُ له الزمام كل الإرخاء، ووسّعتُ له الكلامَ لتسهيل الإنشاء، وكتبتُ من قبلُ في صحيفةٍ أشعتُها، ونميقةٍ إليه دفعتُها، أن ذلك الرجل الغُمْر إنْ لم يستطع أن يتولى بنفسه هذا الأمرَ، فله أن يُشرِك به من العلماء الزُّمَرَ، أو يدعو من العرب طائفةَ الأدباء، أو يطلب من صلحاء قومه همّةً ودعاءً لهذه اللأواء. وما قلتُ هذا القول إلا ليعلم الناس أنهم كلهم جاهلون، ولا يستطيع أحدٌ منهم أن يكتب كمثل هذا ولا يقدرون.

وليس من الصواب أن يقال إن هذا الرجل المدعوّ كان عالمًا في سابق الزمان، وأمّا في هذا الوقت فقد انعدم علمُه كثلج ينعدم بالذوبان، ونسَج عليه عناكبُ النسيان، فإن العلم الذي ادّعاه

وحفظه ووعاه، وقرأه وتلاه، لا بدّ أن يكون له هذا العلمُ كدَرٍّ ربّاه، أو كسراجٍ أضاء بيتَه وجلاّه، فكيف يزول هذا العلم بهذه السرعة، ويخلو كظرفٍ منثلمٍ وِعاءُ الحافظةِ، وتنــزل آفةٌ مُنسِيةٌ على المَدارك والجَنان، حتى لا يبقى حرف على لوحها إلى هذا القدر القليل من الزمان؟ وكيف تهبّ صراصر الذهول على علوم كُسبت بشِقّ النفس والقحول؟ ولو فرضنا أن آفة النسيان أجاحَ شجرةَ علمه من البنيان، وسقطتْ على زهر دِرايته صواعقُ الحرمان، فكيف نفرض أن هذا البلاء ورد على ألوف من العلماء الذين جُعلوا له كالشركاء، وأُشرِكوا في وِزْرِه كالوزراء؟ بل أُذِنَ له أن يطلب كلَّ ما استيسرَ له من الأدباء، لعلّه يكتب قولاً بليغًا ولا يتيهُ كالناقة العشواء.

ثم من المسلَّم أن الله يربّي عقول الصالحين، ويُسعِدهم بالهداية إلى طرق الروحانيين، ويذكِّرهم إذا ما ذهلوا معارفَ كلام الله القدّوس، ويُنْزِلُ السكينة عند الزلزال على النفوس، ويؤيّدهم بروحٍ منه، ويعضُد بالإعانة على الإبانة، ويتولى أمورهم ويميّزهم بالحصاة والرزانة، ويصرِفهم من السفاهة، ويعصِمهم من الغواية ويحفظهم في الرواية والدراية؛ فلا يقِفون موقفَ مندمة، ولا يرون يومَ تندُّمٍ ومنقصة، ولا تغرُبُ أنوارهم، ولا تخرُب دارهم. منابعهم لا تغور،

وصنائعهم لا تبور. ويؤيَّدون في كل موطن ويُنصَرون، ويُرزَقون مِن كل معرفة ومِن كل جهل يُبعَدون. ولا يموتون حتى تُكمَّل نفوسهم فإذا كُمّلتْ فإلى ربهم يُرجَعون. فإن الله نور فيميل إلى النور، وعادتُه البدور إلى البُدور. ولما كانت هذه عادة الله بأوليائه، وسُنّته بعباده المنقطعين وأصفيائه، لزِم أن لا يرى عبدُه المقبول وجهَ ذلّةٍ، ولا يُنسَب إلى ضعف وعلّة، عند مقابلةٍ مِن أهل ملّة، ويفوقَ الكلَّ عند تفسير القرآن بأنواع علم ومعرفة. وقد قيل إن الوليّ يخرج من القرآن، والقرآن يخرج من الوليّ، وإن خفايا القرآن لا يظهر إلا على الذي ظهر مِن يَدَيِ العليمِ العليّ. فإن كان رجلٌ مَلَكَ وحدَه هذا الفهمَ الممتاز، فمَثله كمثل رجل أخرجَ الرُكازَ، وما بذل الجهدَ وما رأى الارتمازَ، فهو وليُّ الله وشأنُه أعظمُ وذيله أرفعُ مِن همزِ الهَمّاز ولمزِ اللَمّاز. وما أُعطِيَ هذا الوليّ الفاني من معارف القرآن كالجَهاز، فهو معجزة بل هو أكبر من كل نوع الإعجاز. وأيّ معجزة أعظم من إعجازٍ قد وقَع ظِلَّ القرآنِ، وشابهَ كلامَ الله في كونه أبعدَ من طاقة الإنسان؟ وليس هذا الموطن إلا للمتّقين، ولا تُفتَح هذه الأبواب إلا على الصالحين، ولا يمسّه إلا الذي كان من المطهَّرين. وإن الله لا يهدي كيد الخائنين الذين يجعلون المكائد منتجَعًا، والأكاذيب كهفًا ومرجَعًا، ولهم قلوبٌ كلَيْلٍ أردفَ أذنابَه، وظلامٍ

مَدَّ إلى مدى الأبصار أطنابَه. لا يعلمون ما القرآن، وما العلم والعرفان؟ ومن لم يعلم القرآن، وما أُوتيَ البيان فهو شيطان أو يضاهي الشيطانَ، وما عرف الرحمنَ. وما كان لفاسق أن يبلُغ هذه المُنْية العَلِيّة، ولو شحَذ إليها النفسَ الدنيّة، بل هو يختار طريق الفرار، خوفًا من هتك الأستار، وظهور العِثار. وكذلك فعَل هذا الرجل الكائد، والمزوِّر الصائد، فانظروا كيف زوَّر، وأرى التهوّرَ، وقال لبّيتُ الدعوةَ وما لبّى، وقال عبّيتُ العسكر للخصام وما عبّى، وما بارزَ بل خدع وخَبَّ، وإلى جُحْرِهِ أَبَّ. وتراءى نحيفًا ضعيفا وكان يُرِي نفسَه رجلاً بَبّا. وأخلدَ إلى الأرض وشابهَ الضبَّ. وما صعِد وما ثَبَّ، وجمَع الأوباش وما دعا الربَّ. وحقّرني وشتم وسبَّ، وتبِع الحيلَ وما صافى اللهَ وما أحبَّ، وما قطَع له العُلَقَ وما جَبَّ. وقال إني عالم والآن نجمُ علمِه أَزَبَّ، وكلُّ ما دبّر تَبَّ. وإنْ كان عالـــمًا فأيّ حرج على عالم أن يفسّر سورة من سور القرآن، ويكتب تفسيره في لسان الفرقان، بل يُحمَد لهذا ويُثنى عليه بصدق الجنان، ويُعلَم أنه من رجال الفضل والعلم والبيان، ويُشكَر بما ينفع الناسَ من معارفَ عُلِّمَ من الرحمن. فلذلك أقول إنه مَن كان يدّعي ذَرى المكانِ المنيع، فليبذُلْ الآن جُهْدَ المستطيع، ويُثبِت نفسَه كالضليع. ولا شكّ أن إظهار الكمال من سيرة الرجال وعادة الأبطال، لينتفع

به الناس وليُخرَجَ به مسكينٌ من سجن الضلال. ولا يرضى الكاملُ بأن يعيش كمجهول لا يُعرَف، ونَكِرةٍ لا تُعرَّف. وإن الفضل لا تتبيّن إلا بالبيان، ولا يُعرَف الشمس إلا بالطلوع على البلدان.

وإني ألزمتُ نفسي أن أكتب تفسيري هذا في إثباتِ ما أُرسلتُ به من الحضرة، وأن أفتحَ هذه الأبواب بمفاتيح "الفاتحة"، مع لطائف البيان ورعايةِ المُلَح الأدبية، والتزام الفصاحة العربية. ومن المعلوم أن نَمْقَ الدقائق الدينيّة، والرموز العلميّة، والإيماضات والإشارات، مع توشيح العبارات وترصيع الاستعارات، والتزامِ محاسن الكنايات، وحسن البيان ولطائف الإيماءات، أمرٌ قد عُدَّ من المعضلات، وخَطْبٌ حُسِبَ من المشكلات، وما جمَع هذين الضِدَّين إلا كتاب الله مظهر الآيات البيّنات، وماحِي الأباطيلِ والجهلات. وإن الشعراء لا يملكون أَعِنّةَ هذه الجِياد، فتنتشر كلماتهم انتشارَ الجَراد، ولكني سألتُ الله فأعطاني، وجئته عطشانَ فأرْواني، فنحن الموفَّقون، ونحن المؤيَّدون. تُواتينا الأقلام، كأنها السِهام والحُسام، ولنا من ربّنا كلامٌ تامّ وظلٌّ ظليل، فكلُّ رداء نرتديه جميل. ولنا جِبِلّةٌ لا تبلُغها الجبال، وقوّةٌ لا تُعجِزها الأثقال، وحالٌ لا تغيّرها الأحوال، وربٌّ لا تُرَدُّ مِن حضرته الآمال.

فحاصل الكلام أني من الله وكلامي من هذا العلاّم، وإني كتبتُ دعواي ودلائلها في هذا الكتاب، لأُسعِفَ الخصمَ بحاجته وأُنجيه من الاضطراب. فإن الخصم كان يدعوني إلى المباحثات، بعد ما دعوته لنَمْقِ التفسير في حُلل البلاغة ومحاسن الاستعارات. فلمّا لويتُ عِذاري وتصدّيتُ لاعتذاري من المناظرات، حمَل إنكاري على فراري من هذه الغَزاة، وما كان هذا إلا كيدًا منه وحيلةً للنجاة، ليستعصم من اللائمين واللائمات. وكان يعلم أن إعراضي كان لعهدٍ سبَق، وما كنتُ كعبدٍ أبَق، ولكنه طلَب الفرار بهذه المعاذير الكاذبة، لعل الناس يفهمونه بَطَلَ المضمارِ ومُتِمَّ الحجّةِ، فأردنا الآن أن نعطيه ما سأل ولا نردّه بالحرمان، ونجلِّي مَطلَعَ صدقِنا بنور البرهان، ونقطع معاذيره كلها بسيف البيان، لعلّ الله يجلو به صَدَأَ الأذهان، ويفهِّم ما لم يفهموه قبل هذا الميدان. فهذا هو السبب الموجِب لنمقِ الدعوى والدلائل، لئلا يبقى عذر للسائل.

وإن هذا التفسير جمَع المباحثات، مع اللطائف والنكات، فاليوم أدرك الخصمُ كلَّ ما طلب منا في حُلل المناظرات، مع أنه ترَك طرق الديانات، وتصدّى للأمر بأنواع الاهتضام والخيانات، وبقِي دَيْنُنا فعليه أن يقضي الدَين كرَدِّ الأمانات. وإني عاهدتُ الله أن لن أحضُر مواطنَ المباحثات، وأشعتُ هذا العهد في التأليفات، فما كان لي أن

أنكُث العهود، وأعصيَ الربَّ الودود. فلأجل ذلك أغلقتُ هذا الباب، وما حضرتُ الخصم للبحث ولو عيَّبني واغتابَ، وإني كلّمتُه كالخليط فكلّمني بالتخليط. وقد دعوتُه من قبلُ ففرّ من شوكتي، ثم دعوتُ فهابَه هيبتي، وهذه ثالثة ليتمّ عليه حجّةُ الله وحجّتي. إنه مالَ إلى الزَّمر ومِلْنا إلى الذِّمار. وإن المعارف منّا كبُعوثٍ جُمِّروا على الثغور مِن قِبل مَلِكِ الديار.

ثم اعلموا أن رسالتي هذه آية من آيات الله رب العالمين، وتبصرة لقوم طالبين، وإنها من ربي حجة قاطعة وبرهان مبين. كذلك، ليُذيق الأفّاكين قليلا مِن جزاء ذنوبهم، ويُرِيَ الناسَ ما ترشّح من ذَنوبهم، ويجنّبهم بمعجزة قاهرة، ويزيلَ اضطجاعَ الأمن مِن جنوبهم، ويستأصل راحة كاذبة من قلوبهم. والحق، والحق أقول، إنّ هذا كلام كأنه حُسام، وإنه قطع كلَّ نزاع وما بقي بعده خصام. ومن كان يظنّ أنه فصيح وعنده كلام كأنه بدر تام، فليأْتِ بمثله والصمتُ عليه حرام. وإنْ اجتمع آباؤهم وأبناؤهم، وأَكْفاؤهم وعلماؤهم، وحكماؤهم وفقهاؤهم، على أن يأتوا بمثل هذا التفسير، في هذا المَدى القليل الحقير، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ كالظهير. فإني دعوتُ لذلك وإن دُعائي مستجاب، فلن تقدر على جوابه كُتّابٌ، لا شيوخ ولا شابّ. وإنه كنْز المعارف ومدينتها،

وماء الحقائق وطِينتها، وقد جاء ألطفَ صُنعًا، وأرقَّ نسجًا، وأكثرَ حِكمًا، وأشرفَ لفظًا، وأقلَّ كَلِمًا، وأوفرَ معنًى، وأجلى بيانًا، وأسنى شأنًا. وما كتبتُه من حولي، وإني ضعيف وكمثلي قولي، بل اللهُ وألطافُه أغلاقُ خزائنه، ومِن عنده أسرارُ دفائنه. جمعتُ فيه أنواع المعارف ورتّبتُ، وصفّفتُ شواردَ النكات وألجمتُ. مَن عرَفه عرَف القرآن، ومن حسِبه كذبًا فقد مانَ. فيه باكورة العرفان، ودقائق الفاتحة والفرقان. فيه بلاد الأسرار وحصونها، وسَهْلُ الحقائق وحُزونها، وعيونُ البصيرة وعيونها، وخيلُ البراهين ومتونها. وذلك من بركات "أُمّ الكتاب"، وما اطّلعتُ عليها إلا بعد تفهيمِ ربي التوّاب. فإنها سورة لا تُطوى عَرْصتُها بإنضاء المراكب، ولا يبلُغ نُورَها نورُ الكواكب. ولما كان الظالمون نسبوني إلى الهزيمة، أعوزَني فِرْيتُهم هذه إلى تفسير سورة الفاتحة، لأُخلِّصَ نفسي من النواجذ والأنياب، فإن صول الكلاب أهون من صول المفتري الكذّاب. وهذا من فضل الله ورحمته ليكون آية للمؤمنين، وحسرة على المنكرين، وحجّة على كل خصم إلى يوم الدين، وهدًى للمتقين، وليعلمَ الناسُ أن الفوزَ بصدق المقال، لا بالتصلّف كالجهّال، والفتحَ بطهارة البال، لا بعَذِرةِ الأقوال التي هي كالأبوال، وصلاحَ الحال بسلاح العلم والكمال، لا بالاحتيال والاختيال. فويلٌ للذين قصدوا

الفتح بالمكائد، ورصدوا مواضعها كالصائد. وإنْ هو إلا مِن أحكم الحاكمين، ينصر من يشاء ويكفل الصالحين، فيندمل جريحهم، ويستريح طَلِيحُهم، ولا تركُد ريحهم، ولا تخمُد مصابيحهم. ومنصورُه يُملأ مِن علم الفرقان ولسان العرب، كما يُملأ الدلوُ إلى عَقْدِ الكَرَبِ. وإنه أنا ولا فخرَ، وإن دعائي يذيب الصخر. وإن يومي هذا يوم الفتح ويوم الضياء، بعد الليلة الليلاء. اليوم خرِس الذين كانوا يهذِرون، وغُلّتْ أيديهم إلى يوم يبعثون. وكنتُ أطوف حول هذه الأوراق، كسائل يطوف في السِكك والأسواق، فأراني الله ما أراني، وسقاني ما سقاني، فوافيتُ دُروبَها كما هداني، وأُعطيَ لي ما سألتُ، وفُتح عليّ فحللتُ. وكلّ ما رقَمتُ فهو من أنفاس العلاّم، لا من أفراس الأقلام، فما كان لي أن أقول إني أعلمُ مِن غيري، أو زاد منهم سَيري، ولا أقول إنّ روحي التفَّ بأرواحِ فتيان كانوا من الأدباء، أو غالت نفسي جميعَ نفائس الإنشاء، ولا أدّعي أني انتهيت إلى فِناءِ منتهى الأدب، أو أكلتُ كلَّ باكورة من المعاني النُخَب، بل دعوتُ مُخدَّراتِه فوافتْني فتياتُه، فقبِلهن فتاه مفترّةً شفتاه متهلّلاً مُحيّاه. فلا تستطلعوني طِلْعَ أديبٍ، وما أنا في بلدة الأدب إلا كغريبٍ. وكل ما ترون مني فهو من تأييد ربي، ومِن حضرةٍ ألقيتُ بها جِراني وحملتُ إليها إِرْبي، وإنه في العُقبى وهذه حِبّي. وإني

مسيحه وحماري حِمارةُ حفِظه، ولُطفه قَتَبي. ولولا فضل الله ورحمته لكان كلامي ككَلِمِ حاطبِ ليلٍ، أو كغُثاءِ سيلٍ. ووالله إني ما قدرتُ على هذا بقريحةٍ وقّادة، بل بفضل من الله وسعادة. وإن هذه المخدَّرة ما سفَرت عن وجهها بيدي القصيرة، ولكن بفضل الله وعناياته الكثيرة، فإنه رأى الإسلام كسقيم في مَوماةٍ، فيه رَمَقُ حياةٍ، ساقطًا على صَلاة، كقذائفِ فلواتٍ، وعلاه صَغارٌ، وعليه أطمار، فأدركَه كإدراك عِهاد، لسَنَةٍ جَمادٍ، ورحَض وجهَه وأزال وَسَخَ مِئِينَ، وصبَّ عليه الماءَ المَعينَ. فبعث عبدًا من عباده لإتمام الحجة، وأودعَ كلامَه إعجازًا ليكون ظِلاًّ للمعجزة النبوية – عليه ألوف الصلاة والتحية – ولا يَمَسُّ منه منقصةُ شأنِ كلام ربّ الكائنات، فإن الكراماتِ أظلال للمعجزات. وكذلك دمّر الله كلَّ ما دبّر العِدا كالصائد، وهدّم كلّ ما بنوا من المكائد، وأبطلَ كلّ ما حقّقوا مكيدةً، وأخّرَ كلَّ ما قدّموا حَرْبةً، وعطّل كلَّ ما نصبوا حيلةً، وهدّم كلّ ما أشادوا بروجًا مشيَّدة، وأطفأَ كلَّ ما أوقدوا نارًا، وأغلق الدروب كلما أرادوا فرارًا، فما كان في وسعهم أن يبارزوا كأبطال المضمار، أو يخرجوا من هذا السجن بتسوُّر الخنادق والأسوار. وما قدّموا قَدَمًا إلا رجعوا بأنواع النَكال، حتى جاء وقت هذا التفسير الذي هو آخر نبل من النِبال، وإنّا كمّلناه بفضل الله

ذي الجلال، وجاء أرسى وأرسخَ من الجبال، وصار كحصنٍ حَصينٍ بُنِيَ بالأحجار الثقال، وإنه بلغ حدَّ الإعجاز من الله الفعّال، وإنه محفوظ مِن قصد العدوّ المدحور الضالّ. وانتصفْنا به من العِدا بعضَ الانتصاف، وكسَرْنا خيامًا ضربوها وقِبابًا نصبوها في المصافّ. وكان هذا الأمر صعبًا ولكن الله ألانَ لي شديدًا، وأدنى إليّ بعيدًا، ونقل العدوَّ من السعة إلى المضايق، وأعمى أبصاره وصرَف همّته عن العلوم والحقائق، وألقى الرعب في قلوبهم، وأخذهم بذنوبهم، فنبذوا سلاحهم، وتركوا لِقاحهم، وأنفدوا وَجاحَهم، وقوّضوا قِبابَهم، ونثَلوا جِعابهم، ونفَضوا جِرابهم، وأرَوا من العجز أنيابهم، وأذِن لهم أن يأتوا بجميع جنودهم مِن خيلها ورَجِلِها، وحَفْلِها وجَحْفلِها، وزُمَرِها وقوافلها، فصاروا كمَيتٍ مقبور، أو زيتِ سراج احترق وما بقي معه من نور. وسكّتْنا مَن بارز مِن صغيرهم وكبيرهم، وأَوْكَفْنا مَن نَهَق من حميرهم، فما كانوا أن يتحركوا من المكان، أو يميلوا من السِنَةِ إلى السِنان، بل جرّبنا مِن شَرْخِ الزمن إلى هذا الزمان، أن هؤلاء لا يستطيعون أن يبارزونا في الميدان، وليس فيهم إلا السب والشتم قاعدين في الحجرات كالنسوان. يفرّون من كل مأزقٍ، ويتراءى أطمارُهم مِن تحتِ يَلْمَقٍ، ثم لا يُقرّون ولا يتندّمون، ولا

يتقون الله ولا يرجعون. فهذا التفسير عليه سهمٌ من سهام، وكَلْمٌ بكلام، لعلهم ينتبهون، وإلى الله يتوبون.

وإنّا شرَطْنا فيه أن لا يجاوز فريق منّا سبعين يومًا، ومَن جاوز فلن يُقبَل تفسيره ويستحقّ لومًا. وكذلك من الشرائط أن لا يكون التفسير أقلَّ من أربعة أجزاء، وهذه شروط بيني وبين خصمي على سواء، وقد شهرناها من قبل وبلّغناها إلى الأحباب والأعداء، بعد الطبع والإملاء.

والآن نشرع في التفسير بعون الله النصير القدير، ورتّبناه على أبواب لئلا يشقّ على طُلاّب. ومع ذلك سلَكْنا مسلكَ الوسط ليس بإيجازٍ مُخِلٍّ، ولا إطنابٍ مُمِلٍّ. وإنه له عن هذا العاجز كالعِجْزة، وأُخرِجَ مِن رَحِمِ القَدر برَحْمٍ من الله ذي العزّة، في أيام الصيام وليالي الرحمة. وسمّيتُه "**إعجاز المسيح** في نَمْق التفسير الفصيح". وإني أُرِيتُ مبشِّرةً في ليلة الثلاثاء، إذ دعوتُ الله أن يجعله معجزة للعلماء، ودعوتُ أن لا يقدر على مثله أحدٌ من الأدباء، ولا يُعطَى لهم قدرةٌ على الإنشاء، فأُجيبَ دعائي في تلك الليلة المباركة من حضرة الكبرياء، وبشّرني ربي وقال: "منَعه مانعٌ من السماء". ففهمتُ أنه يشير إلى أن العدا لا يقدرون عليه، ولا يأتون بمثله ولا كصِفَتَيْه. وكانت هذه البشارة من الله المنّان، في العشر الآخر من رمضان،

الذي أُنزلَ فيه القرآن، ثم بعد ذلك كُتب فيه هذا التفسير، بعون الله القدير.

رَبِّ اجعَلْ أفئدةً من الناس تهوي إليه، واجعلْه كتابًا مباركًا وأنزِلْ بركاتٍ من لدنك عليه، فإنّا توكّلنا عليك، فانصرْنا مِن عندك وأيّدنا بيديك، وكفّلْ أمرنا كما كفّلتَ السابقين من الصالحين، واستجبْ هذه الدعواتِ كلَّها وإنّا جئناك متضرعين، فكُنْ لنا في الدنيا والدين. آمين.

الباب الأول

في ذكر أسماء هذه السورة وما يتعلق بها

اعلمْ أن هذه السورة لها أسماء كثيرة، فأوّلُها فاتحة الكتاب، وسُمّيتْ بذلك لأنه يُفتتح بها في المصحَف وفي الصلاة وفي مواضع الدعاء من ربّ الأرباب. وعندي أنها سُمّيتْ بها لِما جعَلها الله حَكَمًا للقرآن، ومُلِئَ فيها ما كان فيه من أخبار ومعارف من الله المنّان. وإنها جامعة لكل ما يحتاج الإنسان إليه في معرفة المبدأ والمعاد كمثل الاستدلال على وجود الصانع وضرورة النبوة والخلافة في العباد. ومِن أعظم الأخبار وأكبرها أنها تبشّر بزمان المسيح الموعود وأيام المهدي المعهود، وسنذكره في مقامه بتوفيق الله الودود. ومن أخبارها أنها تبشّر بعمر الدنيا الدنيّة، وسنكتبه بقوة من الحضرة الأحديّة.

وهذه هي الفاتحة التي أخبر بها نبي من الأنبياء، وقال إني رأيتُ ملَكًا قويًّا نازلاً من السماء، وفي يده "الفاتحة" على صورة الكتاب الصغير، فوقَع رجلُه اليمنى على البحر واليسرى على البر بحكم الرب

القدير، وصرخ بصوت عظيم كما يزْأَر الضِرغام، وظهرت الرعود السبعة بصوته وكلٌّ منها وُجِد فيه الكلام، وقيل: اختِمْ على ما تكلّمتْ به الرعود، ولا تكتبْ، كذلك قال الرب الودود. والمَلَك النازل أقسمَ بالحيّ الذي أضاء نورُه وجهَ البحار والبلدان، أن لا يكون زمان بعد ذلك الزمان بهذا الشأن.

وقد اتفق المفسرون أن هذا الخبر يتعلق بزمان المسيح الموعود الربّاني، فقد جاء الزمان وظهرت الأصوات السبعة من السبع المثاني. وهذا الزمان للخير والرشد كآخر الأزمنة، ولا يأتي زمان بعده كمثله في الفضل والمرتبة. وإنّا إذا ودّعْنا الدنيا فلا مسيحَ بعدنا إلى يوم القيامة، ولا ينْزل أحدٌ من السماء ولا يخرج رأسٌ من المغارة، إلا ما سبق من ربي قولٌ في الذرّيّة◆. وإنّ هذا هو الحق، وقد نزل مَن كان نازلاً من الحضرة، وتشهد عليه السماء والأرض ولكنكم لا تطّلعون على هذه الشهادة، وستذكرونني بعد الوقت، والسعيدُ مَن أدرك الوقت وما أضاعه بالغفلة.

ثم نرجع إلى كَلِمِنا الأولى، فاسمعوا مني يا أولي النهى. إن للفاتحة أسماء أخرى، منها سورة الحمد، بما افتُتح بحمد ربنا الأعلى. ومنها أُمُّ القرآن بما جمعتْ مطالبَه كلها بأحسن البيان، وتأبّطتْ كصَدَفٍ

◆ الحاشية: إليه إشارة في قوله عليه السلام: "يتزوج ويولد له". منه.

دُرَرَ الفرقان، وصارت كعُشٍّ لطير العرفان. فإن القرآن جمع علوما أربعة في الهدايات: (١) علم المبدأ، (٢) وعلم المعاد، (٣) وعلم النبوّة، (٤) وعلم توحيد الذات والصفات. ولا شك أن هذه الأربعة موجودة في الفاتحة، ومَوءودة في صدور أكثر علماء الأمّة، يقرأونها وهي لا تجاوز من الحناجر، لا يفجّرون أنهارها السبعة بل يعيشون كالفاجر.

ومن الممكن أن يكون تسمية هذه السورة بأُمّ الكتاب، نظرًا إلى غاية التعليم في هذا الباب، فإن سلوك السالكين لا يتمّ إلا بعد أن يستولي على قلوبهم عزّةُ الربوبية وذلّةُ العبودية، ولن تجد مرشدًا في هذا الأمر كهذه السورة من الحضرة الأحدية. ألا ترى كيف أظهرَ عزّةَ الله وعظمته بقوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ثم أظهر ذلّةَ العبد وهوانه وضعفه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومن الممكن أن يكون تسميةُ هذه السورة به نظرًا إلى ضرورات الفطرة الإنسانية، وإشارةً إلى ما تقتضي الطبائع بالكسب أو الجواذب الإلهية، فإن الإنسان يحبّ لتكميل نفسه أن يحصل له علمُ ذات الله وصفاته وأفعاله، ويحبّ أن يحصل له علمُ مرضاته بوسيلة أحكامه التي تنكشف حقيقتها بأقواله. وكذلك تقتضي روحانيته أن

تأخذ بيده العنايةُ الربانية، ويحصل بإعانته صفاءُ الباطن والأنوارُ والمكاشفات الإلهية. وهذه السورة الكريمة مشتملة على هذه المطالب، بل وقعتْ بحُسن بيانها وقوة تبيانها كالجالب.

ومن أسماءِ هذه السورة "السبع المثاني". وسبب التسمية أنها مُثّنى، نصفُها ثناءُ العبد للرب ونصفُها عطاء الرب للعبد الفاني.

وقيل إنها سُمّيت المثاني بما أنها مستثناة من سائر الكتب الإلهية، ولا يوجد مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الصحف النبوية.

وقيل إنها سُمّيت مثاني لأنها سبع آيات من الله الكريم، وتعدِل قراءةُ كل آية منها قراءةَ سُبْعٍ من القرآن العظيم.

وقيل سُمّيت سبعًا إشارةً إلى الأبواب السبعة من النيران، ولكل منها جزءٌ مقسوم يدفَع شُواظَها بإذن الله الرحمن. فمن أراد أن يمرّ سالمًا مِن سبع أبواب السعير، فعليه أن يدخل هذه السبعَ ويستأنس بها ويطلب الصبرَ عليها من الله القدير. وكل ما يُدخِل في جهنم من الأخلاق والأعمال والعقائد، فهي سبعُ موبقات من حيث الأصول، وهذه سبعٌ لدفع هذه الشدائد.

ولها أسماء أخرى في الأخبار، وكفاك هذا فإنه خزينة الأسرار. ومع ذلك حصرُ هذا التعداد إشارةٌ إلى سنوات المبدأ والمعاد، أعني أن آياتِها السبعَ إيماءٌ إلى عمر الدنيا فإنها سبعة آلاف، ولكل منها دلالة

على كيفيةِ إيلاف. والألف الأخير في الضلال كبير، وكان هذا المقام يقتضي هذا الإعلام كما كفلتِ الذِكرَ إلى معاد من ائْتِناف.

وحاصل الكلام أن الفاتحة حصنٌ حَصين، ونور مبين، ومعلِّم ومُعين. وإنها يحصن أحكامَ القرآن من الزيادة والنقصان كتحصين الثغور بإمرار الأمور. ومَثلها كمثل ناقة تحمل كل ما تحتاج إليه، وتوصل إلى ديار الحِبّ مَن ركب عليه، وقد حُمل عليها مِن كل نوعِ الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات. أو مثلها كمثل بِركةٍ صغيرٍ، فيها ماء غزير، كأنها مجمعُ بحار، أو مجرى قَلَهْذَمٍ زخّارٍ. وإني أرى أن فوائد هذه السورة الكريمة ونفائسها لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وليس في وُسع الإنسان أن يحصيها وإنْ أنفدَ عمرًا في هذا الهوى. وإن أهل الغيّ والشقاوة ما قدروها حق قدرها من الجهل والغباوة، وقرأوها فما رأوا طِلاوتها مع تكرار التلاوة. وإنها سورة قويُّ الصول على الكَفَرة، سريعُ الأثر على الأفئدة السليمة، ومَن تأمّلَها تأمُّلَ المنتقد، وداناها بفكر منير كالمصباح المتّقد، ألفاها نورَ الأبصار ومفتاح الأسرار. وإنه الحق بلا ريب، ولا رَجْمٌ بالغيب. وإن كنتَ في شكٍّ فقُمْ وجرّبْ واترك اللغوب والأيْن، ولا تسأل عن كيف وأينَ.

ومن عجائب هذه السورة أنها عَرَّفَ* اللهَ بتعريف ليس في وُسْع بشرٍ أن يزيد عليه. فندعو الله أن يفتح بيننا وبين قومنا بالفاتحة، وإنّا توكلنا عليه. آمين يا رب العالمين.

* *يبدو أنه سهو، والصحيح: عرَّفت. (اللجنة).*

الباب الثاني

في شرح ما يقال

عند تلاوة الفاتحة والقرآن العظيم

أعني: ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾

اعلم يا طالبَ العرفان، أنه مَن أحلَّ نفسَه محلَّ تلاوة الفاتحة والفرقان، فعليه أن يستعيذ من الشيطان، كما جاء في القرآن، فإن الشيطان قد يدخل حِمَى الحضرةِ كالسارقين، ويدخل الحَرَمَ العاصم للمعصومين، فأراد الله أن ينجّي عباده من صَوْل الخنّاس عند قراءة الفاتحة وكلام رب الناس، ويدفعه بحربة منه ويضع الفأس في الرأس، ويخلّص الغافلين من النُعاس؛ فعلَّم كلمةً منه لطردِ الشيطان المدحور إلى يوم النشور. وكان سرّ هذا الأمر المستور، أن الشيطان قد عادى الإنسانَ من الدهور، وكان يريد إهلاكه من طريق الإخفاء والدُّمُور، وكان أحبَّ الأشياء إليه تدمير الإنسان، ولذلك ألزمَ نفسَه أن تصغي إلى كل أمر ينْزل من الرحمن لدعوة الناس إلى الجِنان، ويبذل جهده للإضلال والافتنان. فقدّر الله له الخيبةَ والقوارع ببعث الأنبياء، وما

قتَله بل أنظرَه إلى يومٍ تُبعث فيه الموتى بإذن الله ذي العزة والعلاء. وبشّر بقتله في قوله: ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، فتلك هي الكلمة التي تُقرأ قبل قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وهذا الرجيم هو الذي ورد فيه الوعيد، أعني الدجّال الذي يقتله المسيح المُبيد. والرجمُ القتلُ كما صُرّح به في كتب اللسان العربية. فالرجيم هو الداجل الذي يُغال في زمان من الأزمنة الآتية. وعدٌ من الله الذي يخول على أهله ولا تبديلَ للكَلِمِ الإلهية. فهذه بشارة للمسلمين من الله الرحيم، وإيماءٌ إلى أنه يقتل الدجّال في وقتٍ كما هو المفهوم من لفظ الرجيم.

أشـــعـــــار

ومعنى الرَّجْمِ في هذا المقــــامِ كما عُـــلِّــمتُ مِن ربِّ الأَنامِ
هـــو الإعضـــالُ إعضالُ اللِّئامِ وإسكاتُ العِدا كَهْفِ الظلامِ
وضربٌ يختلي أصلَ الخِصـــامِ ولا نعـــني به ضَـــرْبَ الحُسامِ
ترى الإسلامَ كُـــسِّرَ كالعِظامِ وكَمْ مِـــن خامِلٍ فاقَ العِظامِ
فنادَى الوقـــتُ أيّـــامَ الإمـــامِ لِتُنجَى المسلمونَ مِـــن السِّهامِ
فـــلا تعجَلْ وفكِّرْ في الكـــلامِ أليسَ الوقت وقـــتَ الانتقامِ
أَتى فـــوجُ الملائكـــةِ الكِـــرامِ بِكَفِّ المصطفى أَضْحَى الزِّمامِ

وقد أتى زمان تهلكُ فيه الأباطيل ولا تبقى الزور والظلام، وتفنى المللُ كلها إلا الإسلام، وتُملأُ الأرضُ قسطًا وعدلاً ونورًا، كما كانت مُلئت ظلمًا وكفرًا وجَورًا وزورًا، فهناك تقتل★ مَن سبق الوعيد لتدميره، ولا نعني من القتل إلا كسر قوّته وتنجية أسيرِه.

فحاصل الكلام أن الذي يقال له الشيطان الرجيم، هو الدجّال اللئيم والخنّاس القديم، وكان قتله أمرًا موعودًا، وخَطْبًا معهودًا، ولذلك ألزمَ الله كافّةَ أهل الملّة، أن يقرأوا لفظ "الرجيم" قبل قراءة الفاتحة وقبل البسملة، ليتذكر القارئ أن وقت الدجّال لا يجاوز وقتَ قومٍ ذُكروا في آخر آية من هذه الآيات السبعة. وكان قدرُ الله كُتِبَ مِن بدء الأوان أنه يقتُل الرجيم المذكور في آخر الزمان، ويستريح العبادُ مِن لدغ هذا الثعبان. فاليوم وصل الزمان إلى آخر الدائرة، وانتهى عمر الدنيا كالسبع المثاني إلى السابعة من الألوف الشمسية والقمرية. اليوم تجلّى الرجيم في مظهرٍ هو له كالحُلل البروزية، واختُتم أمرُ الغيّ على قوم اختُتمَ عليه آخرُ كَلِمِ الفاتحة. ولا يفهم هذا الرمزَ إلا ذو القريحة الوقّادة، ولا يُقتَل الدجّال إلا بالحربة السماوية، أَي بفضلٍ من الله لا بالطاقة البشرية، فلا حربَ ولا ضربَ ولكن أمرٌ نازل من الحضرة الأحدية. وكان هذا الدجّال

★ *يبدو سهوا من الناسخ، والصحيح: يُقتَل. (اللجنة).*

يبعث بعض ذراريه في كل مائة من مِئِينَ، ليُضِلّ المؤمنين والموحّدين والصالحين والقائمين على الحق والطالبين، ويهُدّ مبانيَ الدين، ويجعل صحف الله عِضِينَ. وكان وعدٌ من الله أنه يُقتَل في آخر الزمان، ويغلب الصلاحُ على الطلاح والطغيان، وتُبدَّل الأرض ويتوب أكثر الناس إلى الرحمن، وتُشرِق الأرض بنور ربّها، وتخرج القلوب من ظلمات الشيطان. فهذا هو موت الباطل وموت الدجّال وقتل هذا الثعبان.

أم يقولون إنه رجل يُقتَل في وقت من الأوقات؟ كلا.. بل هو شيطان رجيم أبو السيئات، يُرجَم في آخر الزمان بإزالة الجهلات، واستيصال الخزعبيلات. وعدٌ حقٌّ من الله الرحيم، كما أُشير في قوله: ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. فقد تمّت كلمة ربنا صدقًا وعدلاً في هذه الأيام، ونظَر الله إلى الإسلام، بعدما عنَّتْ به البلايا والآلام، فأنزل مسيحَه لقتل الخنّاس وقطع هذا الخصام. وما سُمِّيَ الشيطان رجيمًا إلا على طريق أنباء الغيب، فإن الرجم هو القتل من غير الريب. ولما كان القدر قد جرى في قتل هذا الدجّال عند نزول مسيح الله ذي الجلال، أخبر الله مِن قبل هذه الواقعة تسليةً وتبشيرًا لقوم يخافون أيام الضلال.

الباب الثالث

في تفسير آية:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

اعلم، وهب لك الله عِلم أسمائه، وهداك إلى طرق مرضاته وسبل رضائه، أن الاسم مشتق من الوسم الذي هو أثرُ الكَيِّ في اللسان العربية، يقال: "اتّسمَ الرجلُ" إذا جعَل لنفسه سِمةً يُعَرف بها ويُميَّز بها عند العامة، ومِنه: سَمْتُ البعيرِ ووِسامُه عند أهل اللسان، وهو ما وُسِمَ به البعير من ضُروب الصور ليُعِين للعرفان. ومنه ما يقال: إني توسّمتُ فيه الخيرَ وما رأيت الضَير، أي تفرّستُ فما رأيت سِمةَ شرٍّ في محيّاه، ولا أثرَ خبثٍ في مَحياه. ومنه الوَسْمِيّ الذي هو أوّلُ مطر من أمطار الربيع، لأنه يَسِمَ الأرضَ إذا نزل كالينابيع، ويقال: "أرض موسومة" إذا أصابها الوسميّ في إبّانه، وسكّن قلوب الكُفّار بجريانه. ومنه موسم الحج والسوق وجميع مواسم الاجتماع، لأنها معالم يُجتمع إليها لنوعِ غرض من الأنواع. ومنه المِيسَم الذي يُطلق على الحسن والجمال، ويُستعمل في نساءٍ ذات ملاحة في أكثر الأحوال.

وقد ثبت مِن تتبّع كلام العرب ودواوينهم، أنهم كانوا لا يستعملون هذا اللفظ كثيرًا إلا في موارد الخير من دنياهم ودينهم.

وأنت تعلم أن اسم الشيء عند العامة ما يُعرَف به ذلك الشيءُ، وأما عند الخواص وأهل المعرفة فالاسم لأصل الحقيقة الفَيْءُ، بل لا شكّ أن الأسماء المنسوبة إلى المسمَّيات من الحضرة الأحدية، قد نزلت منها منــــزلةَ الصُوَر النوعيّة، وصارت كوُكْناتٍ لطيورِ المعاني والعلوم الحِكمية. وكذلك اسمُ الله والرحمن والرحيم في هذه الآية المباركة، فإن كل واحد منها يدل على خصائصه وهويّته المكتومة.

والله اسمٌ للذات الإلهية الجامعة لجميع أنواع الكمال، والرحمنُ والرحيم يدلّان على تحقُّق هاتين الصفتين لهذا الاسم المستجمِع لكل نوع الجمال والجلال.

ثم للرحمن معنى خاص يختص به ولا يوجد في الرحيم، وهو أنه مُفيضٌ لوجود الإنسان وغيره من الحيوانات بإذن الله الكريم، بحسب ما اقتضى الحِكَمُ الإلهية من القديم، وبحسب تحمُّلِ القوابل لا بحسب تسوية التقسيم. وليس في هذه الصفة الرحمانية دخلُ كسبٍ وعملٍ وسعيٍ من القوى الإنسانية أو الحيوانية، بل هي مِنّةٌ من الله خاصّةٌ ما سبقها عملُ عامل، ورحمةٌ من لدنه عامّةٌ ما مسَّها أثرُ سعيٍ من ناقصٍ أو كامل. فالحاصل أن فيضان الصفة الرحمانية ليس هو نتيجة

عملٍ ولا ثمرة استحقاق، بل هو فضل من الله مِن غير إطاعة أو شِقاق. وينْزل هذا الفيض دائما بمشيّة من الله وإرادة، مِن غير شرطِ إطاعة وعبادة وتُقاة وزهادة. وكان بناءُ هذا الفيض قبْلَ وجود الخليقة وقبل أعمالهم، وقبل جهدهم وقبل سؤالهم، فلأجل ذلك توجد آثار هذا الفيض قبل آثار وجود الإنسان والحيوان، وإنْ كان ساريًا في جميع مراتب الوجود والزمان والمكان والطاعة والعصيان. ألا ترى أن رحمانية الله تعالى وسِعت الصالحين والظالمين، وترى قمره وشمسه يطلُعان على الطائعين والعاصين، وأنه أعطى كلَّ شيء خَلْقَه وكفَل أمرَ كلِّهم أجمعين. وما من دابّة إلا على الله رزقها ولو كان في السماوات أو في الأرضين، وأنه خلَق لهم الأشجار وأخرج منها الثمار والزهر والرياحين. وإنها رحمة هيّأها الله للنفوس قبل أن يبرَأها وإن فيها تذكرة للمتّقين. وقد أعطى هذه النعم مِن غير العمل ومن غير الاستحقاق، من الله الراحم الخلاّق. ومنها نعماء أخرى من حضرة الكبرياء، وهي خارجة من الإحصاء، كمِثل خلقِ أسباب الصحة وأنواع الحيل والدواء لكل نوع من الداء، وإرسالِ الرسل وإنزال الكتب على الأنبياء. وهذه كلها رحمانية من ربنا أرحم الرحماء، وفضلٌ بحتٌ ليس مِن عمل عامل ولا من التضرّع والدعاء.

وأما الرحيمية فهي فيضٌ أخصُّ من فيوض الصفة الرحمانية، ومخصوصة بتكميل النوع البشري وإكمال الخلقة الإنسانية، ولكن بشرط السعي والعمل الصالح وتركِ الجذبات النفسانية، بل لا تنْزل هذه الرحمة حقَّ نزولها إلا بعد الجهد البليغ في الأعمال، وبعد تزكية النفس وتكميل الإخلاص بإخراج بقايا الرياء وتطهير البال، وبعد إيثار الموت لابتغاء مرضات الله ذي الجلال. فطوبى لمن أصابه حظٌّ من هذه النِعم، بل هو الإنسان وغيرُه كالنَعم.

وههنا سؤالٌ عُضال نكتبه في الكتاب مع الجواب، ليفكّر فيه من كان من أولي الألباب، وهو أن الله اختار مِن جميع صفاته صفتَي الرحمن والرحيم في البسملة، وما ذكَر صفة أخرى في هذه الآية، مع أن اسمه الأعظم يستحق جميعَ ما هو من الصفات الكاملة، كما هي مذكورة في الصحف المطهّرة، ثم إن كثرة الصفات تستلزم كثرة البركات عند التلاوة؛ فالبسملة أحقُّ وأَولى بهذا المقام والمرتبة، وقد نُدِبَ لها عند كل أمرٍ ذي بال كما جاء في الأحاديث النبوية، وإنها أكثرُ ورِدًا على ألسن أهل الملّة، وأكثرُ تكرارًا في كتاب الله ذي العزّة. فبأيّ حكمة ومصلحة لم يُكتَب صفاتٌ أخرى مع هذه الآية المتبرّكة؟

فالجواب أن الله أراد في هذا المقام، أن يذكر مع اسمه الأعظم صفتين هما خلاصة جميع صفاته العظيمة على الوجه التام، وهما الرحمن والرحيم، كما يهدي إليه العقل السليم. فإن الله تجلّى على هذا العالَم تارة بالمحبوبية ومرة بالمُحِبّية، وجعل هاتين الصفتين ضياءً ينْزل من شمس الربوبيّة على أرض العبوديّة. فقد يكون الرب محبوبًا والعبدُ مُحِبًّا لذلك المحبوب، وقد يكون العبد محبوبًا والربُّ مُحِبًّا له وجاعِلَه كالمطلوب. ولا شك أن الفطرة الإنسانية التي فُطرت على المحبّة والخُلّة ولوعة البال، تقتضي أن يكون لها محبوبًا يجذبها إلى وجهه بتجلّيات الجمال والنعم والنوال، وأن يكون له مُحِبًّا مواسيًا يتداركُ عند الأهوال وتشتُّت الأحوال، ويحفظها مِن ضيعة الأعمال، ويوصلها إلى الآمال. فأراد الله أن يعطيها ما اقتضتْها ويُتمّ عليها نعمه بجوده العميم، فتجلّى عليها بصفتيه الرحمن والرحيم⊙. ولا

⊙ الحاشية: قد عرفتَ أن الله بصفة الرحمن يُنزِل على كل عبد من الإنسان والحيوان والكافر وأهل الإيمان أنواعَ الإحسان والامتنان، بغير عمل يجعلهم مستحقين في حضرة الديّان، إذ لا شك أن الإحسان على هذا المنوال، يجعل المحسِن محبوبًا في الحال، فثبت أن الإفاضة على الطريقة الرحمانية، يُظهِر في أعين المستفيضين شأنَ المحبوبيّة، وأمّا صفة الرحيمية، فقد ألزمتْ نفسها شأنَ المُحِبّية، فإن الله لا تتجلى● على أحدٍ بهذا الفيضان إلا بعد أن يُحبّه ويرضى به قولاً وفعلاً من أهل الإيمان. منه.

● *سهو، والصحيح: يتجلّى. (اللجنة).*

ريب أن هاتين الصفتين هما الوُصلة بين الربوبية والعبودية، وبهما يتمّ دائرةُ السلوك والمعارف الإنسانية، فكلّ صفةٍ بعدهما داخلة في أنوارهما، وقطرة من بحارهما.

ثم إن ذات الله تعالى كما اقتضت لنفسها أن تكون لنوع الإنسان محبوبةً ومُحِبّة، كذلك اقتضتْ لعباده الكُمّل أن يكونوا لبني نوعهم كمثلِ ذاته خُلُقًا وسيرةً، ويجعلوا هاتين الصفتين لأنفسهم لباسًا وكسوةً، ليتخلّق العبوديةُ بأخلاق الربوبية، ولا يبقى نقص في النشأة الإنسانية. فخلَق النبيين والمرسلين، فجعل بعضَهم مظهرَ صفتِه الرحمن وبعضَهم مظهرَ صفته الرحيم، ليكونوا محبوبين ومُحِبّين ويعاشروا بالتحابب بفضله العظيم، فأعطى بعضهم حظًّا وافرًا من صفة المحبوبية، وبعضًا آخر حظًّا كثيرًا من صفة المُحِبيّة، وكذلك أراد بفضله العميم، وجُودِه القديم. ولما جاء زمن خاتم النبيين، وسيدنا محمد سيد المرسلين، أراد هو سبحانه أن يجمع هاتين الصفتين في نفسٍ واحدةٍ، فجمعهما في نفسه عليه ألفُ ألفِ صلاةٍ وتحيّة، فلذلك ذكر تخصيصًا صفةَ المحبوبية والمحبيّة على رأس هذه السورة، ليكون إشارةً إلى هذه الإرادة، وسمّى نبينا محمّدًا وأحمد كما سمّى نفسه الرحمن والرحيم في هذه الآية، فهذه إشارة إلى أنه لا جامِعَ لهما على الطريقة الظِلّية إلا وجودُ سيّدِنا خيرِ البريّة.

وقد عرفتَ أن هاتين الصفتين أكبر الصفات من صفات الحضرة الأحدية، بل هما لُبُّ اللُباب وحقيقة الحقائق لجميع أسمائه الصفاتية، وهما معيارُ كمالِ كلِّ مَن استكملَ وتخلَّقَ بالأخلاق الإلهية، وما أُعطيَ نصيبًا كاملاً منهما إلا نبيُّنا خاتم سلسلة النبوّة، فإنّه أُعطيَ اسمين كمثل هاتين الصفتين: أوّلهما محمد والثاني أحمد، من فضل رب الكونين. أما محمد فقد ارتدى رداء صفة الرحمن، وتجلّى في حُلل الجلال والمحبوبية، وحُمِّدَ لبِرٍّ منه والإحسان. وأما أحمد فتجلّى في حُلّة الرحيمية والمُحِبّية والجمالية، فضلاً من الله الذي يتولى المؤمنين بالعون والنصرة. فصار اسما نبيِّنا بحذاءِ صفتَي ربّنا المنّان، كصُورٍ منعكسةٍ تُظهِرها مِرآتان متقابلتان.

وتفصيل ذلك أن حقيقة صفة الرحمانية عند أهل العرفان هي إفاضة الخير لكل ذي روح من الإنسان وغير الإنسان، مِن غيرِ عملٍ سابق بل خالصًا على سبيل الامتنان. ولا شك ولا خلاف أن مثل هذه المنّة الخالصة، التي ليست جزاءَ عملِ عامل من البريّة، هي تجذب قلوب المؤمنين إلى الثناء والمدح والمحمدة، فيحمدون المحسنَ ويثنون عليه بخلوص القلوب وصحة النيّة، فيكون الرحمن محمَّدًا يقينًا مِن غير وهمٍ يجرّ إلى الريبة. فإن المنعِم الذي يحسن إلى الناس مِن غير حقّ بأنواع النعمة، يحمده كلٌّ من أُنعمَ عليه، وهذا من خواص

النشأة الإنسانية. ثم إذا كمُل الحمد بكمال الإنعام، جذَب ذلك إلى الحب التام، فيكون المحسن محمَّدًا ومحبوبًا في أعين المحبِّين. فهذا مآلُ صفة الرحمن، ففكِّرْ كالعاقلين. وقد ظهر من هذا المقام لكل من له عرفان، أن الرحمن محمَّد وأن محمَّدًا رحمن، ولا شك أن مآلهما واحدٌ، وقد جهِل الحقَّ مَن هو جاحدٌ.

وأما حقيقة صفة الرحيمية، وما أُخفيَ فيها من الكيفية الروحانية، فهي إفاضةُ إنعامٍ وخيرٍ، على عملٍ مِن أهل مسجدٍ لا مِن أهل دَيْرٍ، وتكميلُ عمل العاملين المخلصين، وجبرُ نقصانهم كالمتلافين والمعِينين والناصرين. ولا شك أن هذه الإفاضة في حُكم الحمد من الله الرحيم، فإنه لا يُنْزِل هذه الرحمة على عاملٍ إلا بعد ما حمده على نهجه القويم، ورضيَ به عملاً ورآه مستحِقًّا للفضل العميم. ألا ترى أنه لا يقبَل عَمَلَ الكافرين والمشركين والمرائين والمتكبّرين، بل يُحبِط أعمالهم ولا يهديهم إليه ولا ينصرهم، بل يتركهم كالمخذولين. فلا شك أنه لا يتوب إلى أحدٍ بالرحيمية ولا يكمِّل عمله بنصرة منه والإعانة، إلا بعد ما رضيَ به فعلاً وحمِده حمدًا يستلزم نزولَ الرحمة. ثم إذا كمُل الحمد من الله بكمال أعمال المخلصين، فيكون الله أحمَدَ والعبدُ محمَّدًا، فسبحان الله أوّلِ المحمَّدين

والأحمدين. وعند ذلك يكون العبد المخلص في العمل محبوبًا في الحضرة، فإن الله يحمَده مِن عرشه، وهو لا يحمَد أحدًا إلا بعد المحبّة.

فحاصل الكلام، أن كمال الرحمانية يجعل الله محمَّدًا ومحبوبًا، ويجعل العبدَ أحمدَ ومُحِبًّا يستقري مطلوبًا، وكمال الرحيمية يجعل اللهَ أحمدَ ومُحِبًّا، ويجعل العبدَ محمَّدًا وحِبًّا. وستعرف من هذا المقام شأنَ نبيِّنا الإمام الهُمام، فإن الله سمّاه محمَّدًا وأحمدَ، وما سمّى بهما عيسى ولا كليمًا، وأشركَه في صفتيه الرحمن والرحيم بما كان فضله عليه عظيمًا. وما ذكر هاتين الصفتين في البسملة إلا ليعرف الناس أنهما لله كالاسم الأعظم وللنبي من حضرته كالخِلْعة، فسمّاه الله محمَّدًا إشارةً إلى ما فيه من صفة المحبوبية، وسمّاه أحمدَ إيماءً إلى ما فيه من صفة المُحِبّية. أمّا محمَّد فلأجل أن رجلاً لا يحمَده الحامدون حمدًا كثيرًا إلا بعد أن يكون ذلك الرجل محبوبا، وأمّا أحمدُ فلأجل أن حامدًا لا يحمَد أحدًا بحمدٍ كاثرٍ إلا الذي يُحبّه ويجعله مطلوبًا. فلا شك أن اسم محمَّد يوجد فيه معنى المحبوبيّة بدلالة الالتزام، وكذلك يوجد في اسم أحمدَ معنى المُحِبّية من الله ذي الأفضال والإنعام. ولا ريب أن نبيّنا سُمّيَ محمَّدًا لِما أراد الله أن يجعله محبوبًا في أعينه وأعين الصالحين. وكذلك سمّاه أحمدَ لِما أراد سبحانه أن يجعله مُحِبَّ ذاتِه ومُحِبَّ المؤمنين المسلمين. فهو محمَّد بشأن وأحمدُ بشأن.

واختصّ أحدُ هذين الاسمين بزمان والآخر بزمان، وقد أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿دَنَى فَتَدَلَّى﴾، وفي: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

ثم لمّا كان يُظَنُّ أن اختصاص هذا النبي المُطاع السَجّاد بهذه المحامد مِن رب العباد، يجُرّ إلى الشرك كما عُبِدَ عيسى لهذا الاعتقاد، أراد الله أن يُورِثهما الأُمّةَ المرحومة على الطريقة الظِلِّيّة، ليكونا للأُمّة كالبركات المتعدّية، وليزول وَهْمُ اشتراكِ عبدٍ خاصٍ في الصفات الإلهية. فجعَل الصحابةَ ومَن تبِعهم مَظْهَرَ اسمِ محمَّد بالشؤون الرحمانية الجلالية، وجعل لهم غلبةً ونصَرهم بالعنايات المتوالية. وجعل المسيح الموعود مظهرَ اسمِ أحمدَ وبعثه بالشؤون الرحيمية الجمالية، وكتب في قلبه الرحمة والتحنّن وهذّبه بالأخلاق الفاضلة العالية.

فذلك هو المهدي المعهود الذي فيه يختصمون، وقد رأوا الآيات ثم لا يهتدون، ويصرّون على الباطل وإلى الحق لا يرجعون. وذلك هو المسيح الموعود ولكنهم لا يعرفون، وينظرون إليه وهم لا يبصرون. فإن اسم عيسى واسم أحمدَ متّحدان في الهويّة، ومتوافقان في الطبيعة، ويدلاّن على الجمال وتركِ القتال مِن حيث الكيفية. وأمّا اسم محمد فهو اسم القهر والجلال، وكلاهما للرحمن والرحيم كالأظلال. ألا ترى أن اسم الرحمن الذي هو منبع للحقيقة المحمدية، يقتضي الجلالَ كما يقتضي شأنَ المحبوبية؟ ومِن رحمانيته تعالى أنه

سخّر كلَّ حيوان للإنسان، من البقر والمعز والجِمال والبغال والضأن، وأنه أهرقَ دماءً كثيرة لحفظ نفس الإنسان، وما هو إلا أمرٌ جلالي ونتيجة رحمانية الرحمن. فثبت أن الرحمانية يقتضي القهرَ والجلال، ومع ذلك هو من المحبوب لطفٌ لمن أراد له النوال. وكم من دُود المياه والأهوية تُقتَل للإنسان، وكم من الأنعام تُذبَح للناس إنعامًا من الرحمن.

فخلاصة الكلام.. أن الصحابة كانوا مظاهرَ للحقيقة المحمّدية الجلالية، ولذلك قتلوا قومًا كانوا كالسباع ونَعَمِ البادية، ليخلّصوا قومًا آخرين من سجن الضلالة والغواية، ويجرّوهم إلى الصلاح والهداية. وقد عرفتَ أن الحقيقة المحمدية هو مظهر الحقيقة الرحمانية، ولا منافاةَ بين الجلال وهذه الصفة الإحسانية، بل الرحمانية مظهرٌ تامٌّ للجلال والسطوة الربّانية. وهل حقيقة الرحمانية إلا قتل الذي هو أدنى للذي هو أعلى؟ وكذلك جرت عادة الرحمن مُذْ خلق الإنسانَ وما وراءه من الوَرى. ألا ترى كيف تُقتَل دودُ جُرحِ الإبل لحفظِ نفوس الجِمال، وتُقتَل الجِمال لينتفع الناس من لحومها وجلودها، ويتّخذوا من أوبارها ثياب الزينة والجمال. وهذه كلها من الرحمانية لحفظِ سلسلة الإنسانية والحيوانية. فكما أن الرحمن محبوب كذلك هو مظهر الجلال، وكمثله اسمُ محمَّدٍ في هذا الكمال.

ثم لما ورِثَ الأصحاب اسمَ محمَّد من الله الوهّاب، وأظهروا جلال الله وقتلوا الظالمين كالأنعام والدوابّ، كذلك ورِث المسيح الموعود اسمَ أحمدَ الذي هو مظهر الرحيمية والجمال، واختار له اللهُ هذا الاسمَ ولمن تبِعه وصار له كالآل. فالمسيح الموعود مع جماعته مظهرٌ من الله لصفة الرحيمية والأحمدية، ليتمّ قولُه: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾●، ولا رَادَّ للإرادات الربانية، وليتمّ حقيقةُ المظاهر النبوية. وهذا هو وجهُ تخصيص صفة الرحمانية والرحيمية بالبسملة، ليدل على اسمَي محمَّدٍ وأحمدَ ومظاهرِهما الآتية، أعني الصحابة ومسيح الله الذي كان آتيًا في حُلل الرحيمية والأحمدية.

ثم نكرّر خلاصة الكلام في تفسير ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فاعلم أن اسم الله اسمٌ جامد لا يعلم معناه إلا الخبير العليم، وقد أخبر - عزّ اسمُه - بحقيقة هذا الاسم في هذه الآية، وأشار إلى أنه ذاتٌ متّصفة بالرحمانية والرحيمية، أي متصفة برحمةِ الامتنان ورحمةٍ مقيَّدةٍ بالحالة الإيمانية، وهاتان رحمتان كماءٍ أصفى وغذاءٍ أحلى من منبع الربوبية. وكل ما هو دونهما من صفات فهو كشُعَبٍ لهذه الصفات، والأصلُ رحمانية ورحيمية وهما مظهَرُ سِرِّ الذات. ثم أُعطِيَ منهما نصيبٌ كامل لنبيِّنا إمامِ النهج القويم، فجعل اسمه محمَّدًا

● الجمعة: ٤

ظِلَّ الرحمن، واسمه أحمدَ ظِلَّ الرحيم. والسرّ فيه أن الإنسان الكامل لا يكون كاملاً إلا بعد التخلّق بالأخلاق الإلهية وصفات الربوبية، وقد علِمتَ أن أمر الصفات كلها تؤول إلى الرحمتين اللتين سمّيناهما بالرحمانية والرحيمية. وعلِمتَ أن الرحمانية رحمةٌ مطلَقة على سبيل الامتنان، ويَرِدُ فيضانُها على كل مؤمن وكافر بل كل نوع الحيوان، وأمّا الرحيمية فهي رحمةٌ وجوبية من الله أحسنِ الخالقين، وجبتْ للمؤمنين خاصة من دون حيوانات أخرى والكافرين. فلزم أن يكون الإنسان الكامل.. أعني محمدًا.. مظهرَ هاتين الصفتين، فلذلك سُمّي محمَّدًا وأحمدَ من رب الكونَين، وقال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فأشار الله في قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ وفي قوله: ﴿حَرِيصٌ﴾ إلى أنه - عليه السلام - مظهرُ صفته الرحمن* بفضله العظيم، لأنه رحمة للعالمين كلهم ولنوع الإنسان والحيوان وأهل الكفر والإيمان.

ثم قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فجعله رحمانًا ورحيمًا كما لا يخفى على الفهيم، وحمِده وعزا إليه خُلُقًا عظيمًا من التفخيم والتكريم، كما جاء في القرآن الكريم. وإنْ سألتَ ما خُلقه العظيم

* **الحاشية**: قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ *(الأنبياء:١٠٨)*، ولا يستقيم هذا المعنى إلا في الرحمانية، فإن الرحيمية يختص بعالمٍ واحدٍ من المؤمنين. منه.

فنقول إنه رحمن ورحيم، ومُنِحَ هو - عليه الصلاة - هذين النورَين وآدمُ بين الماء والطين، وكان هو نبيًّا وما كان لآدمَ أثرٌ من الوجود ولا من الأديم. وكان الله نورًا فقضى أن يخلق نورًا فخلق محمدًا الذي هو كدُرٍّ يتيم، وأشركَ اسمَيه في صفتَيه ففاق كلَّ مَن أتى اللهَ بقلب سليم، وإنهما يتلألآن في تعليم القرآن الحكيم. وإنّ نبيّنا مركَّبٌ مِن نورِ موسى ونورِ عيسى كما هو مركَّب من صفتَي ربنا الأعلى، فاقتضى التركيب أن يُعطى له هذا المقام الغريب، فلأجل ذلك سمّاه الله محمّدًا وأحمد، فإنه ورث نور الجلال والجمال وبه تفرّدَ، وإنه أُعطِيَ شأن المحبوبين وجَنان المحِبِّين، كما هو من صفتَي رب العالمين، فهو خير المحمودين وخير الحامدين. وأشركه الله في صفتيه، وأعطاه حظًّا كثيرًا من رحمتَيه، وسقاه من عينيه، وخلَقه بيديه، فصار كقارورة فيها راح، أو كمشكاة فيها مصباح. وكمِثل صفتَيه أنزلَ عليه الفرقان، وجمع فيه الجلال والجمال وركّب البيانَ، وجعله سلالةَ التوراة والإنجيل، ومرآةً لرؤية وجهه الجليل والجميل. ثم أعطى الأمّةَ نصيبًا من كأس هذا الكريم، وعلّمهم مِن أنفاس هذا المتعلّم من العليم، فشرِب بعضهم مِن عين اسمِ محمّد التي انفجرت من صفة الرحمانية، وبعضُهم اغترفوا مِن ينبوع اسمِ أحمدَ الذي اشتمل على الحقيقة الرحيمية. وكان قدرًا مقدّرًا من الابتداء ووعدًا

موقوتًا جاريًا على ألسُن الأنبياء، أنّ اسم أحمد لا تتجلى بتجلٍّ تامٍّ في أحدٍ من الوارثين إلا في المسيح الموعود الذي يأتي الله به عند طلوع يوم الدين وحشر المؤمنين، ويرى الله المسلمين كالضعفاء، والإسلامَ كصبيٍّ نُبِذَ بالعراء، فيفعل لهم أفعالاً من لدنه وينْزل لهم من السماء، فهناك تكون له السلطنةُ في الأرض كما هي في الأفلاك، وتهلك الأباطيلُ مِن غير ضرب الأعناق وتنقطع الأسباب كلها وترجع الأمور إلى مالِك الأملاك. وعدٌ من الله حقٌّ كمثلِ وعدٍ تمَّ في آخرِ زمنِ بني إسرائيل، إذ بُعث فيهم عيسى بن مريم فأشاع الدين مِن غير أن يقتل مَن عصى الرب الجليل. وكان في قدر الله العليّ العليم، أن يجعل آخِرَ هذه السلسلة كآخر خلفاءِ الكليم، فلأجل ذلك جعَل خاتمةَ أمرها مستغنيةً مِن نصر الناصرين، ومظهرًا لحقيقة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كما يأتي تفسيره بعد حين.

ومِن تَتَمّةِ هذا الكلام أن نبيَّنا خيرَ الأنام، لـمّا كان خاتمَ الأنبياء وأصفى الأصفياء، وأحبَّ الناس إلى حضرة الكبرياء، أراد الله سبحانه أن يجمع فيه صفتَيه العظيمتين على الطريقة الظِلّيّة، فوهب له اسمَ محمدٍ وأحمدَ ليكونا كالظِّلَّين للرحمانية والرحيمية، ولذلك أشار في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى أن العابد الكامل يُعطَى له صفاتُ ربّ العالمين، بعد أن يكون من العابدين الفانين. وقد علمتَ

أن كل كمال من كمالات الأخلاق الإلهية، منحصرٌ في كونه رحمانًا ورحيمًا ولذلك خَصَّهما الله بالبسملة. وعلمتَ أن اسم محمد وأحمد قد أُقيما مقامَ الرحمن والرحيم، وأودعهما كلَّ كمال كان مخفيّا في هاتين الصفتين من الله العليم الحكيم، فلا شك أن الله جعل هذين الاسمين ظلَّيْن لصفتيه، ومظهرين لسيرتيه، ليُرِيَ حقيقةَ الرحمانية والرحيمية في مرآة المحمدية والأحمدية. ثم لما كان كُمَّلُ أُمّتِه عليه السلام من أجزائه الروحانية وكالجوارح للحقيقة النبوية، أراد الله لإبقاء آثار هذا النبي المعصوم، أن يورّثهم هذين الاسمين كما جعلهم ورثاء العلوم، فأدخل الصحابةَ تحت ظلّ اسمِ محمدٍ الذي هو مظهر الجلال، وأدخلَ المسيحَ الموعود تحت اسمِ أحمدَ الذي هو مظهر الجمال. وما وجد هؤلاء هذه الدولة إلا بالظِلّية، فإذنْ ما ثَمَّ شريكٌ على الحقيقة. وكان غرض الله مِن تقسيم هذين الاسمين، أن يفرّق بين الأمّة ويجعلهم فريقين، فجعل فريقًا منهم كمثل موسى مظهر الجلال، وهم صحابة النبي الذين تصدَّوا أنفسهم للقتال، وجعل فريقًا منهم كمثل عيسى مظهر الجمال، وجعل قلوبَهم ليّنةً وأودعَ السلمَ صدورَهم وأقامهم على أحسن الخصال، وهو المسيح الموعود والذين اتّبعوه من النساء والرجال، فتمّ ما قال موسى وما فاهَ بكلامٍ عيسى وتمّ وعدُ الربّ الفعّال. فإن موسى أخبرَ عن

صحبٍ كانوا مظهرَ اسمِ محمدٍ نبيِّنا المختار، وصوّرَ جلالَ الله القهّار بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، وإن عيسى أخبر عن ﴿آخَرِيْنَ مِنْهُمْ﴾ وعن إمام تلك الأبرار، أعني المسيحَ الذي هو مظهرُ أحمدَ الراحمِ الستّار، ومنبعُ جمال الله الرحيم الغفّار، بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ الذي هو مُعجِبُ الكُفّار*. وكل منهما أخبر بصفاتٍ تُناسب صفاتِه الذاتية، واختار جماعةً تُشابهُ أخلاقُهم أخلاقَه المرضية، فأشار موسى بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى صحابةٍ أدركوا صحبةَ نبيّنا المختار، وأَرَوا شدّةً وغلظةً في المضمار، وأظهروا جلال الله بالسيف البتّار، وصاروا ظِلَّ اسمِ محمد رسول الله القهّار، عليه صلوات الله وأهل السماء وأهل الأرض من الأبرار والأخيار. وأشار عيسى بقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾° إلى قومٍ ﴿آخَرِيْنَ مِنْهُمْ﴾

---

* *الكافر: الزارع. (المنجد) - (اللجنة).*

° **الحاشية**: اعلمْ يا طالبَ العرفان، أنه ما جاء في كتاب الله الفرقان أن الصحابة كانوا رحماء على أهل البغي والعدوان، وأما رُحْمُ بعضِهم على بعضٍ فلا يُخرجِهم من الجلالية، بل تزيد قوةَ الجلال كونَهم في صورة الوحدة، فإنهم كشخص واحدٍ عند الله، وكالجوارح لحضرة الرسالة. ولا يختلج في قلبٍ أنّ مَثل الزرع مشترَكٌ في التوراة والإنجيل، فإن هذا المَثل قد خُصّ بكتاب عيسى في التنزيل، ثم لا نجده في التوراة ونجده في الإنجيل بالتفصيل. ومن المعلوم أن القرّاء الكبار يقفون على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ ولا يُلحِقون به هذا المَثل عند قراءة هذه الآيات، بل يخصّونه بالإنجيل يقينًا من

وإمامِهم المسيح، بل ذكَر اسمَه أحمدَ بالتصريح، وأشار بهذا المثل الذي جاء في القرآن المجيد إلى أن المسيح الموعود لا يظهر إلا كنباتٍ ليّنٍ لا كالشيء الغليظ الشديد.

ثم من عجائب القرآن الكريم أنه ذكر اسمَ أحمد حكايةً عن عيسى، وذكَر اسمَ محمد حكايةً عن موسى، ليعلم القارئ أن النبي الجلالي.. أعني موسى.. اختار اسمًا يشابهُ شأنَه، أعني محمدًا الذي هو اسم الجلال، وكذلك اختار عيسى اسمَ أحمد الذي هو اسم الجمال بما كان نبيًّا جماليًّا، وما أُعطِيَ له شيء من القهر والقتال. فحاصل الكلام أن كُلاًّ منهما أشار إلى مثيله التامّ، فاحفَظْ هذه النكتة فإنها تنجيك من الأوهام، وتكشف عن ساقَي الجلالِ والجمال، وتُرِي الحقيقة بعد رفع الفِدام. وإذا قبِلتَ هذا فدخلتَ في حفظ الله وكِلائه مِن كل دجّال، ونجوتَ من كل ضلال.

غير الشبهات، ولأجل ذلك كُتِبَ الوقفُ الجائز عليه في جميع المصاحف المتداولة، وإنْ كنتَ في شك فانظرْ إليها لزيادة المعرفة. منه.

الباب الرابع

في تفسير

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

اعلمْ أن الحمد ثناءٌ على الفعل الجميل لمن يستحق الثناء، ومدحٌ لمنعِمٍ أنعمَ من الإرادة وأحسنَ كيف شاء. ولا يتحقق حقيقةُ الحمد كما هو حقُّها إلا للذي هو مَبْدَءٌ لجميع الفيوض والأنوار، ومُحسِنٌ على وجه البصيرة، لا مِن غير الشعور ولا من الاضطرار، فلا يوجد هذا المعنى إلا في الله الخبير البصير، وإنه هو المحسن ومِنْه المِننُ كلها في الأول والأخير، وله الحمد في هذه الدار وتلك الدار، وإليه يرجع كلُّ حمد يُنسَب إلى الأغيار.

ثم إن لفظ الحمد مصدرٌ مبنيٌّ على المعلوم والمجهول، وللفاعل والمفعول من الله ذي الجلال، ومعناه أن الله هو محمَّدٌ وهو أحمدُ على وجه الكمال. والقرينة الدالة على هذا البيان، أنه تعالى ذكر بعد الحمد صفاتٍ تستلزم هذا المعنى عند أهل العرفان. واللهُ سبحانه أومأ

في لفظ الحمد إلى صفات توجد في نوره القديم، ثم فسّر الحمدَ وجعَله مُخدَّرةً سفَرتْ عن وجهها عند ذكر الرحمن والرحيم. فإن الرحمن يدل على أن الحمد مبني على المعلوم، والرحيم يدل على المجهول كما لا يخفى على أهل العلوم.

وأشار الله سبحانه في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أنه هو خالقُ كل شيء ومنه كلُّ ما في السماوات والأرضين. ومِن العالَمين ما يوجد في الأرض مِن زُمر المهتدين وطوائف الغاوين والضالين، فقد يزيد عالَمُ الضلال والكفر والفسق وتركِ الاعتدال، حتى يُملأ الأرضُ ظلمًا وجورًا ويترُك الناس طرقَ اللهِ ذا الجلال، لا يفهمون حقيقة العبودية، ولا يؤدّون حقّ الربوبية، فيصير الزمان كالليلة الليلاء، ويُداسُ الدين تحت هذه اللأواء. ثم يأتي الله بعالَمٍ آخر فتُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض وينْزل القضاء مُبدَّلاً من السماء، ويُعطَى للناس قلبٌ عارفٌ ولسانٌ ناطقٌ لشكر النعماء، فيجعلون نفوسهم كمَوْرٍ مُعبَّد لحضرة الكبرياء، ويأتونه خوفًا ورجاءً بطرفٍ مغضوض من الحياء، ووجهٍ مُقبِل نحو قبلة الاستجداء، وهمّةٍ في العبودية قارعةٍ ذُروةَ العلاء، ويشتدّ الحاجة إليهم إذا انتهى الأمر إلى كمال الضلالة، وصار الناس كسباعٍ أو نَعَمٍ من تغيُّرِ الحالة، فعند ذلك تقتضي الرحمة الإلهية والعناية الأزلية أن يُخلَق في السماء ما يدفع الظلام،

ويهدم ما عمر إبليسُ وأقام، من الأبنية والخيام. فينْزل إمامٌ من الرحمن، ليذُبّ جنودَ الشيطان. ولم يزل هذه الجنود وتلك الجنود يتحاربان، ولا يراهم إلا من أُعطِيَ له عينان، حتى غُلَّ أعناقُ الأباطيل، وانعدمَ ما يُرى لها نوعُ سرابٍ من الدليل. فما زال الإمام ظاهرًا على العِدا، ناصرًا لمن اهتدى، مُعْلِيًا معالــمَ الهدى، مُحيِيًا مواسمَ التُّقَى، حتى يعلم الناس أنه أَسَرَ طواغيتَ الكفر وشدَّ وِثاقَها، وأخَذ سباع الأكاذيب وغلَّ أعناقَها، وهدَم عمارةَ البدعات وقوّض قِبابَها، وجمَع كلمةَ الإيمان ونظم أسبابها، وقوّى السلطنةَ السماوية وسدَّ الثغور، وأصلح شأنها وسدّد الأمور، وسكّن القلوب الراجفة، وبكّت الألسنة المرجفة، وأنار الخواطرَ المظلمة، وجدّد الدولة المُخْلِقة. وكذلك يفعل الله الفعّال، حتى يذهب الظلام والضلال، فهناك ينكص العدا على أعقابهم، وينكِّسون ما ضربوا من خيامهم، ويحلّون ما أرَّبوا من آرابهم.

ومِن أشرف العالَمين وأعجب المخلوقين، وجودُ الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين الصدّيقين، فإنهم فاقوا غيرهم في بثّ المكارم وكشفِ المظالم، وتهذيبِ الأخلاق وإرادة الخير للأنفس والآفاق، ونشرِ الصلاح والخير، وإجاحةِ الطلاح والضير، وأمرِ المعروف والنهيِ عن الذمائم، وسوقِ الشهوات كالبهائم، والتوجّهِ

إلى ربّ العبيد، وقطعِ التعلّق من الطريف والتليد، والقيامِ على طاعة الله بالقوة الجامعة والعُدّة الكاملة، والصولِ على ذراري الشيطان بالحشود المجموعة والجموع المحشودة، وتركِ الدنيا للحبيب، والتباعُدِ عن مغناها الخصيب، وتركِ مائها ومرعاها كالهجرة، وإلقاءِ الجِران في الحضرة. إنهم قومٌ لا يتمضمضُ مُقْلتُهم بالنوم، إلا في حبّ الله والدعاء للقوم. وإن الدنيا في أعين أهلها لطيفُ البِنْية مليحُ الحِلْية، وأمّا في أعينهم فهي أخبثُ من العَذِرة، وأنتنُ عن المَيتة. أقبلوا على الله كلَّ الإقبال، ومالوا إليه كلّ الميل بصدق البال. وكما أن قواعد البيت مقدَّمة على طاقٍ يُعقَّد، ورُواقٍ يُمهَّد، كذلك هؤلاء الكرام مقدَّمون في هذه الدار، على كل طبقة من طبقات الأخيار. وأُرِيتُ أن أكملَهم وأفضلهم وأعرفهم وأعلمهم نبيُّنا المصطفى، عليه التحية والصلاة والسلام في الأرض والسماوات العُلى، وإنّ أشقى الناس قومٌ أطالوا الألسنة وصالوا عليه بالهَمْز وتجسُّس العيب، غيرَ مطّلعين على سرّ الغيب. وكم من ملعونٍ في الأرض يحمده الله في السماء، وكم من معظَّمٍ في هذه الدار يُهان في يوم الجزاء.

ثم هو سبحانه أشار في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أنه خالقُ كل شيء وأنه يُحمَد في السماء والأرضين، وأن الحامدين كانوا على حمده دائمين، وعلى ذكرهم عاكفين، وإنْ مِن شيء إلا يسبِّحه

ويحمَده في كل حين. وإن العبد إذا انسلخ عن إراداته، وتجرّدَ عن جذباته، وفنى في الله وفي طرقه وعباداته، وعرف ربَّه الذي ربّاه بعناياته، حمِده في سائر أوقاته، وأحبَّه بجميع قلبه بل بجميع ذرّاته، فعند ذلك هو عالَمٌ من العالَمين، ولذلك سُمّي إبراهيم أُمّةً في كتابِ أعلَمِ العالِمين.

ومن العالَمين زمانٌ أُرسِلَ فيهم خاتم النبيين، وعالَمٌ آخر فيه يأتي الله بآخرين من المؤمنين في آخر الزمان رحمةً على الطالبين، وإليه أشار في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَة﴾*، فأومأ فيه إلى أحمدَين وجعَلهما مِن نعمائه الكاثرة. فالأول منهما أحمدُ المصطفى ورسولنا المجتبى، والثاني أحمدُ آخرِ الزمان، الذي سُمّي مسيحًا ومهديًّا من الله المنّان. وقد استنبطتُ هذه النكتة من قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فليتدبّرْ من كان من المتدبّرين.

وعرفتَ أن العالَمين عبارة عن كل موجود سوى الله خالقِ الأنام، سواء كان مِن عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، وسواء كان من مخلوق الأرض أو كالشمس والقمر وغيرهما من الأجرام. فكلٌّ من العالَمين داخلٌ تحت ربوبية الحضرة.

* القصص: ٧١

ثم إن فيض الربوبية أعمُّ وأكملُ وأتمُّ من كل فيض يُتصَوَّر في الأفئدة، أو يجري ذكرُه على الألسنة. ثم بعده فيض عامّ وقد خُصَّ بالنفوس الحيوانية والإنسانية، وهو فيضُ صفة الرحمانية، وذكَره الله بقوله: ﴿الرحمن﴾ وخصَّه بذوي الروح من دون الأجسام الجمادية والنباتية.

ثم بعد ذلك فيضٌ خاصٌّ وهو فيضُ صفة الرحيمية، ولا ينْزل هذا الفيض إلا على النفس التي سعَى سعيَها لكسب الفيوض المترقّبة، ولذلك يختص بالذين آمنوا وأطاعوا ربًّا كريمًا، كما صُرّح في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾* فثبت بنصّ القرآن أن الرحيمية مخصوصة بأهل الإيمان، وأما الرحمانية فقد وسعتْ كلَّ حيوان من الحيوانات، حتى إن الشيطان نال نصيبًا منها بأمر حضرة رب الكائنات. وحاصل الكلام أن الرحيمية تتعلق بفيوضٍ تترتب على الأعمال، ويختص بالمؤمنين من دون الكافرين وأهل الضلال.

ثم بعد الرحيمية فيضٌ آخر وهو فيض الجزاء الأَتمّ والمكافاة، وإيصال الصالحين إلى نتيجة الصالحات والحسنات، وإليه أشار عزّ اسمه بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وإنه آخر الفيوض من رب العالمين، وما ذُكر فيضٌ بعده في كتاب الله أعلم العالِمين. والفرق في هذا

* *الأحزاب: ٤٤*

الفيض وفيض الرحيمية، أن الرحيمية تبلِّغ السالك إلى مقام هو وسيلة النعمة، وأمّا فيض المالكية بالمجازاة، فهو يبلِّغ السالك إلى نفس النعمة وإلى منتهى الثمرات وغاية المرادات وأقصى المقصودات. فلا خفاءَ أن هذا الفيض هو آخر الفيوض من الحضرة الأحدية، وللنشأة الإنسانية كالعلّة الغائية، وعليه يتمّ النعم كلها وتستكمل به دائرة المعرفة ودائرة السلسلة. ألا ترى أن سلسلة خلفاءِ موسى انتهت إلى نُكتةِ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فظهر عيسى في آخرها وبُدِّلَ الجور والظلم بالعدل والإحسان مِن غير حرب ومحاربين، كما يُفهَم من لفظ الدِّين، فإنه جاءِ بمعنى الحلم والرفق في لغة العرب وعند أدبائهم أجمعين. فاقتضت مماثلةُ نبيّنا بموسى الكليم، ومشابهةُ خلفاء موسى بخلفاءِ نبيِّنا الكريم، أن يظهَر في آخر هذه السلسلة رجلٌ يشابهُ المسيحَ، ويدعو إلى الله بالحلم ويضع الحربَ ويُقرِبُ السيفَ المُجِيحَ، فيحشُر الناسَ بالآيات من الرحمن، لا بالسيف والسنان، فيشابهُ زمانُه زمانَ القيامة ويومَ الدين والنشور، ويملأ الأرضَ نورًا كما مُلئت بالجور والزور. وقد كتب الله أنه يُرِي نموذجَ يوم الدين قبل يوم الدين، ويحشر الناس بعد موت التقوى، وذلك وقت المسيح الموعود وهو زمان هذا المسكين، وإليه أشار في آية ﴿يَوْمِ الدِّيْن﴾، فليتدبّرْ من كان من المتدبّرين.

وحاصل الكلام أن في هذه الصفات التي خُصّت بالله ذي الفضل والإحسان، حقيقةً مخفيّةً ونبَأً مكتومًا من الله المنّان، وهو أنه تعالى أراد بذكرها أن يُنبِئَ رسولَه بحقيقة هذه الصفات، فأرَى حقيقتَها بأنواع التأييدات، فربّى نبيَّه وصحابتَه فأثبت بها أنه رب العالمين. ثم أتمّ عليهم نعماءه برحمانيته مِن غير عمل العاملين، فأثبتَ بها أنه أرحم الراحمين. ثم أراهم عند عَملهم برحمةٍ منه أياديَ حمايته، وأيّدهم بروح منه بعنايته، ووهب لهم نفوسا مطمئنة، وأنزلَ عليهم سكينة دائمة. ثم أراد أن يُرِيَهم نموذجَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فوهب لهم المُلك والخلافة وألحقَ أعداءهم بالهالكين، وأهلكَ الكافرين وأزعجَهم إزعاجًا، ثم أرى نموذج النشور فأخرج من القبور إخراجًا، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وبدَروا إليه فُرادى وأزواجًا. فرأى الصحابةُ أمواتًا يُلْفُون حياةً، ورأوا بعد المَحْل ماءً ثجّاجًا. وسُمِّيَ ذلك الزمان يومَ الدين، لأن الحق حصحص فيه ودخل في الدين أفواج من الكافرين.

ثم أراد أن يُري نموذجَ هذه الصفات في آخَرين من الأُمّة، ليكون آخِرُ المِلّة كمثل أوّلِها في الكيفية، وليتمّ أمرُ المشابهة بالأمم السابقة، كما أُشير إليه في هذه السورة، أعني قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فتدبّرْ ألفاظَ هذه الآية.

وسُمّيَ زمان المسيح الموعود يومَ الدين، لأنه زمان يحيا فيه الدين، وتُحشَر الناسُ ليقبَلوا باليقين. ولا شك ولا خلاف أنه رَبَّى زماننا هذا بأنواع التربية، وأرانا كثيرًا من فيوض الرحمانية والرحيمية، كما أرى السابقين من الأنبياء والرسل وأرباب الولاية والخُلّة، وبقِيت الصفة الرابعة من هذه الصفات، أعني التجلّي الذي يظهَر في حُلّة مَلِكٍ أو مالِكٍ في يوم الدين للمجازاة، فجعَله للمسيح الموعود كالمعجزات، وجعله حَكَمًا ومَظهَرًا للحكومة السماوية بتأييد من الغيب والآيات. وستعلم عند تفسيرِ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الحقيقةَ، وما قلتُ مِن عند نفسي بل أُعطيتُ من لدن ربي هذه النكاتِ الدقيقة، ومَن تدبّرَها حق التدبر وفكّر في هذه الآيات، علِم أن الله أخبر فيها عن المسيح ومن زمنه الذي هو زمن البركات.

ثم اعلم أن هذه الآيات قد وقعتْ كحَدٍّ مُعرِّفٍ للهِ خالقِ الكائنات، وإنْ كان الله تَعالَى ذاتُه عن التحديدات. ومن هذا التعليم والإفادة يتضح معنى كلمةِ الشهادة، التي هي مناط الإيمان والسعادة. وبهذه الصفات استحقّ اللهُ الطاعةَ وخُصَّ بالعبادة، فإنه يُنـــزِل هذه الفيوض بالإرادة. فإنك إذا قلتَ "لا إله إلا الله"، فمعناه عند ذوي الحصاة، أن العبادة لا يجوز لأحدٍ من المعبودين أو المعبودات، إلا

لذاتٍ غيرِ مُدرَكة مستجمِعةٍ لهذه الصفات، أعني الرحمانية والرحيمية اللتين هما أوّلُ شرطٍ لموجودٍ مستحِقّ للعبادات.

ثم اعلم أن الله اسمٌ جامد لا تُدرَك حقيقتُه لأنه اسم الذات، والذاتُ ليست من الْمُدرَكات، وكلُّ ما يقال في معناه فهو من قبيل الأباطيل والخزعبيلات، فإن كُنْهَ البارئ أرفعُ من الخيالات، وأبعدُ من القياسات. وإذا قلتَ "محمدٌ رسول الله"، فمعناه أن محمّدًا مَظهَرُ صفات هذه الذات وخليفتُها في الكمالات، ومُتمِّم دائرة الظلّية وخاتمُ الرسالات.

فحاصلُ ما أُبصِرُ وأَرى أن نبيَّنا خيرَ الورَى، قد ورث صفتَي ربِّنا الأعلى. ثم ورث الصحابة الحقيقةَ المحمدية الجلالية كما عرفتَ فيما مضى، وقد سُلِّمَ سيفُهم في قطعِ دابر المشركين، ولهم ذكرٌ لا يُنسى عند عَبَدة المخلوقين. وإنهم أدّوا حقَّ صفة المحمّدية، وأذاقوا كثيرا من الأيدي الحربية. وبقيتْ بعد ذلك صفة الأحمدية، التي مصبَّغة بالألوان الجمالية، مُحرِقةٌ بالنيران الْمُحِبّية، فورِثها المسيح الذي بُعث في زمن انقطاع الأسباب وتكسُّرِ المِلّة من الأنياب، وفقدانِ الأنصار والأحباب، وغلبةِ الأعداء وصولِ الأحزاب، ليُرِيَ اللهُ نموذجَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بعد ليالي الظلام، وبعد انهدام قوّة الإسلام وسطوة السلاطين، وبعد كون المِلّة كالمستضعفين. فاليوم

صار ديننا كالغرباء، وما بقيتْ له سلطنة إلا في السماء، وما عرفه أهل الأرض فقاموا عليه كالأعداء. فأُرسلَ عند هذا الضعف وذهاب الشوكة عبدٌ من العباد، ليتعهّد زمانًا ماحِلاً تعهُّدَ العِهاد. وذلك هو المسيح الموعود الذي جاء عند ضعف الإسلام، لِيُرِيَ اللهُ نموذجَ الحشر والبعث والقيام ونموذجَ يوم الدين، إنعامًا منه بعد موت الناس كالأنعام. فاعلم أن هذا اليوم يوم الدين، وستعرف صدقَنا ولو بعد حين.

وههنا نكتة كشفيّة ليست من المسموع، فاسمعْ مُصغِيًا وعليك بالــمَودوع، وهو أنه تعالى ما اختار لنفسه ههنا أربعة من الصفات، إلا ليُرِيَ نموذجها في هذه الدنيا قبل الممات، فأشار في قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ إلى أن هذا النموذج يُعطَى لصدر الإسلام، ثم للآخرين من الأمّة الداخرة. وكذلك قال في مقام آخر وهو أصدق القائلين: ﴿ثُلَّةٌ مِن الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾*. فقسم زمان الهداية والعون والنصرة، إلى زمان نبينا ﷺ وإلى الزمان الآخِرِ الذي هو زمانُ مسيح هذه الملّة. وكذلك قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾◉، فأشار إلى المسيح الموعود وجماعته والذين

* الواقعة: ٤٠-٤١

◉ الجمعة: ٤

اتّبعوهم. فثبت بنصوصٍ بيّنة من القرآن، أن هذه الصفات قد ظهرت في زمن نبيّنا ثم تظهر في آخر الزمان، وهو زمانٌ يكثر فيه الفسق والفساد، ويقلّ الصلاح والسداد، ويُجاح الإسلام كما تُجاح الدوحة، ويصير الإسلام كسليم لدغتْه الحيّة، ويصير المسلمون كأنهم الميْتة، ويُداس الدين تحت الدوائر الهائلة والنوازل النازلة السائلة. وكذلك ترون في هذا الزمان، وتشاهدون أنواع الفسق والكفر والشرك والطغيان، وترون كيف كثُر المفسدون، وقلّ المصلحون المواسون، وحان للشريعة أن تُعدَم، وآنَ للملّة أن تُكتَم، وهذا بلاءٌ قد دَهَمَ، وعناءٌ قد هَجَمَ، وشرٌّ قد نَجَمَ، ونارٌ أحرقت العربَ والعَجَمَ. ومع ذلك ليس وقتنا وقتَ الجهاد، ولا زمنَ المرهَفات الحِداد، ولا أوانَ ضرب الأعناق والتقرين في الأصفاد، ولا زمانَ قَوْدِ أهل الضلال في السلاسل والأغلال، وإجراءِ أحكام القتل والاغتيال. فإن الوقت وقت غلبةِ الكافرين وإقبالهم، وضُرِبت الذلّة على المسلمين بأعمالهم. وكيف الجهاد ولا يُمنَع أحدٌ من الصوم والصلاة، ولا الحج والزكاة، ولا من العفّة والتقاة، وما سَلَّ كافر سيفًا على المسلمين، ليرتدّوا أو يجعَلهم عِضِينَ، فمِن العدل أن يُسَلَّ الحُسام بالحُسام، والأقلام بالأقلام. وإنّا لا نبكي على جِراحات السيف والسنان، وإنما نبكي على أكاذيب اللسان، فبالأكاذيب

كُذِّبتْ صحفُ الله وأُخفيَ أسرارُها، وصِيلَ على عمارة المِلّة وهُدّمَ دارها، فصارت كمدينة نُقِضَ أسوارها، أو حديقةٍ أُحرِقَ أشجارها، أو بستانٍ أُتلِفَ زهرها وثمارها وسُقِط أنوارها، أو بلدةٍ طيّبة غِيضَ أنهارها، أو قصورٍ مشيّدة عُفِّيَ آثارُها، ومزَّقها الممزّقون، وقيل ماتت ونعَى الناعون، وطُبعت أخبارُها وأشاعتها المشيّعون. ولكلّ كمال زوالٌ، ولكلّ ترعرُعٍ اضمحلال، كما ترى أن السيل إذا وصل إلى الجبل الراسي وقَف، والليل إذا بلغ الصبح المسفِر انكشف، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾*، فجعَل تنفُّسَ الصبح كأمر لازمٍ بعد كمال ظلمات الليل. وكذلك في قوله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي﴾⊙، جُعل كمال السيل دليلَ زوالِ السيل. فأراد الله أن يردّ إلى المؤمنين أيامَهم الأولى، وأن يُرِيَهم أنه ربُّهم وأنه الرحمن والرحيم ومالكُ يومٍ فيه يُجزَى، ويُبعَث فيه الموتى. وإنكم ترون في هذا الزمان ربوبية الله المنّان ورحمانيته للإنسان والحيوان، التي تتعلّق بالأبدان، وترون أنه كيف خلق أسبابًا جديدة، ووسائل مفيدة، وصنائع لم يُرَ مِثلها فيما مضى، وعجائبَ لم يوجد مِثلها في القرون الأولى، وترون تجدُّدًا في كل ما يتعلق بالمسافر والنـــزيل

* التكوير: ١٨-١٩

⊙ هود: ٤٥

والمقيم وابن السبيل، والصحيح والعليل، والمحارب والمُصالح المُقيل، والإقامة والرحيل، وجميعِ أنواع النعماء والعراقيل، كأن الدنيا بُدّلتْ كل التبديل. فلا شك أنها ربوبية عظمى، ورحمانية كبرى. وكذلك ترى الربوبية والرحمانية والرحيمية في الأمور الدينية، وقد يُسِّرَ كلُّ أمر لطلباء العلوم الإلهية، ويُسِّرَ أمرُ التبليغ وأمر إشاعة العلوم الروحانية. وأُنزِلت الآيات لكل من يعبد الله ويبتغي السكينة من الحضرة، وانكسف القمر والشمس في رمضان وعُطّلت العِشار فلا يُسعَى عليها إلا بالندرة، وسوف ترى المركب الجديد في سبيل مكة والمدينة. وأُيِّدَ العالمون والطالبون بكثرة الكتب وأنواع أسباب المعرفة، وعُمِرَ المساجد، وحُفِظَ الساجد، وفُتِحَ أبواب الأمن والتبليغ والدعوة، وما هو إلا فيض الرحيمية. فوجب علينا أن نشهد أنها وسائل لا يوجد نظيرها في القرون الأولى، وأنه توفيق وتيسير ما سمِع نظيرَه أُذنٌ وما رأى مثلَه بصرٌ، فانظرْ إلى رحيمية ربِّنا الأعلى. ومِن رحيميته أنّا قدَرْنا على أن نطبع كتب ديننا في أيام، ما كان مِن قبل في وُسع الأوّلين أن يكتبوها في أعوام، وأنّا نقدر على أن نطّلع على أخبار أقصى الأرض في ساعات⊙، وما قدر عليه السابقون إلا

⊙ **الحاشية**: كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ *(الزلزال:٥)*. منه.

لشِقِّ* الأنفس وبذلِ الجهد إلى سنوات. وقد فُتِحَ علينا في كل خير أبوابُ الربوبية والرحمانية والرحيمية، وكثرتْ طرقُها حتى خرج إحصاؤها من الطاقة البشرية. وأين تيسّرَ هذا للسابقين من أهل التبليغ والدعوة؟ وإن الأرض زُلزلت لنا زلزالاً، فأخرجتْ أثقالاً، وفُجّرت الأنهار، وسُجّرت البحار، وجُدّدت المراكب وعُطّلت العِشار. وإن السابقين ما رأوا كمثل ما رأينا من النعماء، وفي كل قدمٍ نعمةٌ وقد خرجت من الإحصاء. ومع ذلك كثرتْ موت القلوب وقساوة الأفئدة، كأن الناس كلهم ماتوا ولم يبق فيهم روح المعرفة، إلا قليلٌ الذي هو كالمعدوم من الندرة.

وإنّا فهمنا مما ذكرنا مِن ظهور الصفات وتجلّي الربوبيةِ والرحمانية والرحيمية كمثل الآيات، ثُمّ مِن كثرة الأموات وموتِ الناس من سُمّ الضلالات، أن يوم الحشر والنشر قريب بل على الباب، كما هو ظاهرٌ من ظهور العلامات والأسباب، فإن الربوبية والرحمانية والرحيمية تموّجتْ كتموُّج البحار، وظهرتْ وتواترت وجرت كالأنهار. فلا شك أن وقت الحشر والنشور قد أتى، وقد مضت هذه السُنّة في صحابةِ خيرِ الورى. ولا شك أن هذا اليوم يوم الدين، ويوم الحشر ويوم مالكية ربِّ السماء وظهورِ آثارها على قلوب أهل

* سهو، والصحيح: بشِقّ. (اللجنة).

الأرضين. ولا شك أن اليوم يوم المسيح الحَكَمِ من الله أحكَمِ الحاكمين، وأنه حشرٌ بعد هلاك الناس وقد مضى نموذجه في زمن عيسى وزمنِ خاتم النبيين، فتدبّرْ ولا تكنْ من الغافلين.

الباب الخامس

في تفسير

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

اعلمْ أن حقيقة العبادة التي يقبَلها المولى بامتنانه، هي التذلل التام برؤية عظمته وعلوّ شأنه، والثناءُ عليه بمشاهدة مِننه وأنواع إحسانه، وإيثارُه على كل شيء بمحبّة حضرته وتصوُّر محامده وجماله ولمعانه، وتطهيرُ الجنان من وساوس الجِنّة نظرًا إلى جِنانه. ومن أفضل العبادات أن يكون الإنسان محافِظًا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، وأن يَجْهَدَ للحضور والذوق والشوق وتحصيل بركاتها، مواظبًا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها. فإن الصلاة مركَبٌ يوصل العبد إلى رب العباد، فيصل بها إلى مقام لا يصل إليه على صهوات الجِياد، وصيدُها لا يُصاد بالسهام، وسرُّها لا يظهر بالأقلام. ومن التزمَ هذه الطريقة، فقد بلغ الحق والحقيقة، وأَلْفَى الحِبَّ الذي هو في حُجب الغيب، ونجا من الشك والريب، فترى أيامَه غُرَرًا، وكلامَه دُرَرًا، ووجهَه بدرًا، ومقامَه صدرًا. ومَن ذلَّ للهِ في صلواته أذلّ الله له الملوكَ، ويجعل مالِكًا هذا المملوكَ.

ثم اعلم أنّ الله حمِد ذاتَه أوّلاً في قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم حثّ الناس على العبادة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ففي هذه إشارة إلى أن العابد في الحقيقة هو الذي يحمَده حقَّ المَحْمدة. فحاصل هذا الدعاء والمسألة أن يجعل اللهُ أحمدَ كلَّ مَن تصدّى للعبادة، وعلى هذا كان من الواجبات أن يكون أحمدُ في آخر هذه الأُمّة على قدم أحمدَ الأول الذي هو سيد الكائنات، ليفهم أن الدعاء استُجيبَ مِن حضرة مستجيبِ الدعوات، وليكون ظهوره للاستجابة كالعلامات. فهذا هو المسيح الذي كان وعدُ ظهوره في آخر الزمان مكتوبًا في الفاتحة وفي القرآن.

ثم في هذه الآية إشارة إلى أن العبد لا يمكنه الإتيان بالعبودية، إلا بتوفيق من الحضرة الأحدية.

ومِن فروع العبادة أن تحبّ من يعاديك، كما تحب نفسك وبنيك، وأن تكون مُقيلاً للعثرات، متجاوزًا عن الهفوات، وتعيش تقيًّا نقيًّا سليمَ القلب طيّبَ الذات، ووفيًّا صفيًّا منــــزَّهًا عن ذمائم العادات، وأن تكون وجودًا نافعًا لخَلْقِ الله بخاصية الفطرة كبعض النباتات، مِن غير التكلفات والتصنّعات، وأن لا تؤذي أُخَيَّك بكبرٍ منك ولا تجرحه بكلمة من الكلمات، بل عليك أن تجيب الأخَ المغضَب بتواضعٍ ولا تحقِّره في المخاطبات، وتموت قبل أن تموت،

وتحسب نفسك من الأموات، وتعظِّم كلَّ من جاءك ولو جاءك في الأطمار لا في الحُلل والكسوات، وتسلِّم على من تعرفه وعلى من لا تعرفه، وتقوم متصدّيًا للمواساة.

الباب السادس

في تفسير قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ✪

اعلمْ أن هذه الآيات خزينة مملوّة من النكات، وحجّة باهرة على المخالفين والمخالفات، وسنذكرها بالتصريحات، ونُرِيك ما أرانا الله من الدلائل والبينات، فاسمعْ مني تفسيرها لعلّ الله ينجيك من الخزعبيلات.

أما قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فمعناه أَرِنا النهجَ القويم، وثَبِّتْنا على طريق يوصل إلى حضرتك، وينجي من عقوبتك.

✪ **الحاشية**: اعلم أن في آية ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ تبشير للمؤمنين، وإشارةٌ إلى أن الله أعدَّ لهم كلَّ ما أعطى للأنبياء السابقين، ولذلك علّم هذا الدعاءَ ليكون بشارةً للطالبين، فلزم من ذلك أن يختتم سلسلة الخلفاء المحمدية على مثيل عيسى، ليتمّ المماثلة بالسلسلة الموسوية، والكريمُ إذا وعد وفى. منه.

ثم اعلم أن لتحصيل الهداية طرقًا عند الصوفية مستخرَجةً من الكتاب والسنّة، أحدها طلبُ المعرفة بالدليل والحجة، والثاني تصفيةُ الباطن بأنواع الرياضة، والثالث الانقطاعُ إلى الله وصفاءُ المحبة، وطلبُ المدد من الحضرة، بالموافقة التامة وبنفيِ التفرقة، وبالتوبة إلى الله والابتهال والدعاء وعقدِ الهمة.

ثم لما كان طريقُ طلب الهداية والتصفية لا يكفي للوصول مِن غير توسُّل الأئمّة والمهديّين من الأُمّة، ما رضِي الله سبحانه على هذا القدر من تعليم الدعاء، بل حثَّ بقوله: ﴿صِراطَ الَّذِينَ﴾ على تحسُّس المرشدين والهادين من أهل الاجتهاد والاصطفاء من المرسلين والأنبياء. فإنهم قوم آثروا دار الحق على دار الزور والغرور، وجُذبوا بحبال المحبّة إلى الله بحرِ النور، وأُخرجوا بوحيٍ من الله وجذبٍ منه مِن أرض الباطل، وكانوا قبل النبوّة كالجميلة العاطل. لا ينطقون إلا بإنطاق المولى، ولا يؤْثرون إلا الذي هو عنده الأَولى. يسعون كلَّ السعي ليجعلوا الناس أهلاً للشريعة الربّانية، ويقومون على ولدها كالحانية. ويُعطَى لهم بيان يُسمِع الصُمَّ ويُنـــزِل العُصْمَ، وجنانٌ يجذِب بعَقْدِ الهمّة الأُممَ. إذا تكلّموا فلا يرمون إلا صائبا، وإذا توجّهوا فيُحيون مَيْتًا خائبا. يسعون أن ينقلوا الناس من الخطيّات إلى الحسنات، ومن المنهيّات إلى الصالحات، ومن الجهلات إلى الرزانة

والحَصاة، ومن الفسق والمعصية إلى العفّة والتقاة. ومَن أنكرَهم فقد ضيَّع نعمة عُرِضتْ عليه، وبعُد مِن عين الخير وعن نورِ عينَيْه. وإن هذا القطع أكبر من قطع الرحم والعشيرة، وإنهم ثمرات الجنة فويل للذي تركهم ومالَ إلى المِيرة. وإنهم نور الله ويُعطَى بهم نورٌ للقلوب، وترياقٌ لسُمِّ الذنوب، وسكينةٌ عند الاحتضار والغرغرة، وثباتٌ عند الرحلة وتركِ الدنيا الدنيّة. أتظنُّ أن يكون الغير كمثل هذه الفئة الكريمة؟ كلا والذي أخرجَ العَذْقَ من الجريمة. ولذلك علّم اللهُ هذا الدعاء مِن غاية الرحمة، وأمَر المسلمين أن يطلبوا ﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾ مِن النبيّين والمرسلين من الحضرة. وقد ظهر من هذه الآية، على كل مَن له حظٌّ من الدِراية، أن هذه الأمّة قد بُعثتْ على قدم الأنبياء، وإنْ مِن نبي إلا له مثيل في هؤلاء. ولولا هذه المضاهاة والسواء، لبطُل طلبُ كمال السابقين وبطُل الدعاء. فالله الذي أمَرنا أجمعين، أن نقول ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ مصلّين ومُمسِين ومصبحين، وأن نطلب صراط الذين أنعمَ عليهم من النبيين والمرسلين، أشار إلى أنه قد قدّر من الابتداء، أن يبعث في هذه الأمّة بعضَ الصلحاء على قدم الأنبياء، وأن يستخلفهم كما استخلفَ الذين مِن قبلُ مِن بني إسرائيل. وإنّ هذا لهو الحق فاترُك الجدل الفضول والأقاويل. وكان غرض الله أن يجمع في هذه الأمّة

كمالاتٍ متفرقة، وأخلاقًا متبددة، فاقتضتْ سنّتُه القديمة أن يعلّم هذا الدعاءَ، ثم يفعل ما شاء. وقد سُمّي هذه الأمّة خيرَ الأمم في القرآن، ولا يحصل خيرٌ إلا بزيادة العمل والإيمان والعلم والعرفان، وابتغاءِ مرضاة الله الرحمن. وكذلك وعَد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ليستخلفنّهم في الأرض بالفضل والعنايات، كما استخلف الذين من قبلهم من أهل الصلاح والتقاة. فثبت من القرآن أن الخلفاء من المسلمين إلى يوم القيامة، وأنه لن يأتي أحد من السماء، بل يُبعَثون من هذه الأمة.

وما لك لا تؤمن ببيان الفرقان؟ أتَرَكْتَ كتاب الله أم ما بقِي فيك ذرة من العرفان؟ وقد قال الله ﴿مِنْكُمْ﴾، وما قال "مِن بني إسرائيل"، وكفاك هذا إن كنت تبغي الحق وتطلب الدليل. أيها المسكين اقرأِ القرآن ولا تمشِ كالمغرور، ولا تبعُدْ مِن نور الحق لئلا يشكو منك إلى الحضرة سورةُ الفاتحة وسورةُ النور. اتّق الله، ثم اتّق الله، ولا تكنْ أوّلَ كافر بآيات النور والفاتحة، لكيلا يقوم عليك شاهدان في الحضرة. وأنت تقرأ قوله ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾، وتقرأ قوله ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، ففكّرْ في قوله ﴿مِنْكم﴾ في سورة النور واترُك الظالمين وظنَّهم. ألم يأنِ لك أن تعلم عند قراءة هذه الآيات، أن الله قد جعل الخلفاء كلهم من هذه الأمّة بالعنايات، فكيف يأتي

المسيح الموعود من السماوات؟ أليس المسيح الموعود عندك من الخلفاء، فكيف تحسبه من بني إسرائيل ومن تلك الأنبياء؟ أتترك القرآن وفي القرآن كل الشفاء؟ أو تغلّبتْ عليك شِقْوتك، فتترك متعمدًا طريقَ الاهتداء؟ ألا ترى قوله تعالى ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ في هذه السورة؟ فوجب أن يكون المسيح الآتي من هذه الأمّة، لا مِن غيرهم بالضرورة. فإن لفظ ﴿كما﴾ يأتي للمشابهة والمماثلة، والمشابهةُ تقتضي قليلا من المغايرة، ولا يكون شيءٌ مُشابهَ نفسِه كما هو من البديهيات. فثبت بنصٍّ قطعيّ أن عيسى المنتظَر من هذه الأمة، وهذا يقينيٌّ ومنــزّهٌ عن الشبهات. هذا ما قال القرآن ويعلمه العالمون، فبأي حديث بعده تؤمنون؟ وقد قال القرآن إن عيسى نبي الله قد مات، ففكّرْ في قوله ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ ولا تُحْيِ الأمواتَ، ولا تنصُر النصارى بالأباطيل والخزعبيلات، وفِتَنُهم ليست بقليلة فلا تزِدْها بالجهلات، وإن كنت تحبّ حياةَ نبيٍّ فآمِنْ بحياةِ نبيِّنا خيرِ الكائنات. وما لك أنك تحسب مَيْتًا مَن كان رحمةً للعالمين، وتعتقد أن ابن مريم من الأحياء بل من المُحْيِين؟ انظُرْ إلى "النور" ثم انظر إلى "الفاتحة"، ثم ارجعِ البصرَ ليرجع البصر بالدلائل القاطعة. ألستَ تقرأ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ﴾ في هذه السورة، فأنَّى

تُؤفَك بعد هذا؟ أتنسى دعاءك أو تقرأ بالغفلة؟ فإنك سألت عن◆ ربك في هذا الدعاء والمسألة، أن لا يغادر نبيًّا من بني إسرائيل إلا ويبعث مثيلَه في هذه الأمّة. وَيْحَك، أنَسيتَ دعاءَك بهذه السرعة، مع أنك تقرأه في الأوقات الخمسة؟ عجبتُ منك كلَّ العجب، أهذا دعاؤك، وتلك آراؤك؟ انظرْ إلى الفاتحة وانظرْ إلى سورة النور من الفرقان، وأيّ شاهد يُقبَل بعد شهادة القرآن؟ فلا تكنْ كالذي سرى إيجاسَ خوفِ الله واستشعارَه، وتَسَرْبَلَ لباسَ الوقاحة وشِعارَه. أتتركُ كتاب الله لقوم تركوا الطريق، وما كمّلوا التحقيق والتعميق، وإنّ طريقهم لا يوصل إلى المطلوب، وقد خالف التوحيدَ وسبلَ الله المحبوب. فلا تحسبْ وَعْرًا دَمِثًا وإنْ دمَّثه كثيرٌ من الخُطى، وإنْ اهتدتْ إليها أبابيل من القطا، فإنّ هُدى الله هو الهدى. وإن القرآن شهد على موت المسيح، وأدخلَه في الأموات بالبيان الصريح. ما لك ما تفكّر في قوله ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وفي قوله ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، وما لك لا تختار سبيل الفرقان وسَرَّك السُّبُلُ. وقد قال ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾، فما لكم لا تفكّرون. وقال لكم فيها مستقرٌّ ومتاع إلى حين، فكيف صار مستقرُّ عيسى في السماء أو عرشَ رب العالمين؟ إنْ هذا إلا كذب مبين. وقال سبحانه ﴿أَمْوَاتٌ

◆ *يبدو أن "عن" زيدت هنا سهواً، والصحيح: سألتَ ربَّك. (اللجنة).*

غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾، فكيف تحسبون عيسى من الأحياء؟ الحياء الحياء، يا عباد الرحمن. القرآن القرآن، فاتقوا الله ولا تتركوا الفرقان. إنه كتاب يُسأَل عنه إنسٌ وجانٌّ. وإنكم تقرأون الفاتحة في الصلاة، ففكِّروا فيها يا ذوي الحصاة. ألا تجدون فيها آية ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فلا تكونوا كالذين فقدوا نورَ عينَيْهم، وذهب بما لديهم. وَيْحَكم، وهل بعد الفرقان دليل، أو بقِي إلى مفرٍّ من سبيل؟ أيقبَل عقلكم أن يبشّر ربُّنا في هذا الدعاء، بأنه يبعث الأئمّةَ مِن هذه الأمّة لمن يريد طريق الاهتداء، الذين يكونون كمثل أنبياء بني إسرائيل في الاجتباء والاصطفاء، ويأمرنا أن ندعو أن نكون كأنبياء بني إسرائيل، ولا نكون كأشقياء بني إسرائيل، ثم بعد هذا يدُعُّنا ويُلقينا في وِهاد الحرمان، ويرسل إلينا رسولا من بني إسرائيل وينسى وعده كل النسيان؟ وهل هذا إلا المكيدة التي لا ينسب إلى الله المنان؟ وإن الله قد ذكر في هذه السورة ثلاثةَ أحزاب من الذين أنعمَ عليهم واليهود والنصرانيين، ورَغَّبَنا في الحزب الأول منها ونهى عن الآخرين، بل حَثَّنا على الدعاء والتضرع والابتهال، لنكون من المنعَم عليهم لا من المغضوب عليهم وأهل الضلال.

ووالذي أنزل المطرَ من الغمام، وأخرج الثمرَ من الأكمام، لقد ظهر الحق من هذه الآية، ولا يشكّ فيه مَن أُعطيَ له ذرة من

الدراية. وإن الله قد منَّ علينا بالتصريح والإظهار، وأماطَ عنا وَعْثاءَ الافتكار، فوجب على الذين يُنَضْنِضون نضنضةَ الصِلِّ، ويُحَمْلِقون حملقةَ البازي المطِلِّ، أن لا يُعرِضوا عن هذا الإنعام، ولا يكونوا كالأنعام.

وقد عَلِقَ بقلبي أن الفاتحة تأسُو جِراحَهم، وترِيش جناحَهم، وما مِن سورة في القرآن إلا هي تكذّبهم في هذا الاعتقاد، فاقرأْ مما شئتَ من كتاب الله يُريك طريق الصدق والسداد. ألا ترى أن سورة "بني إسرائيل" يمنع المسيحَ أن يرقى في السماء، وأن "آل عمران" تعِده أن الله مُتوَفِّيه وناقِلُه إلى الأموات من الأحياء. ثم إن "المائدة" تبسُط له مائدة الوفاة، فاقرأْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِي﴾ إنْ كنت في الشبهات. ثم إن "الزُمَر" يجعله مِن زُمَرٍ لا يعودون إلى الدنيا الدنيّة، وإنْ شئتَ فاقرأْ ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِيْ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾. واعلم أن الرجوع حرام بعد المنيّة. وحرام على قرية أهلكهَا الله أن تُبعَث قبل يوم النشور، وأما الإحياء بطريق المعجزة فليس فيه الرجوع إلى الدنيا التي هي مقام الظلم والزور. ثم إذا ثبت موت المسيح بالنص الصريح، فأزال الله وَهْمَ نزولِه من السماء بالبيان الفصيح، وأشار في سورة النور والفاتحة، أن هذه الأمّة يرث أنبياء بني إسرائيل على الطريقة الظلّيّة، فوجب أن يأتي في آخر الزمان مسيح من هذه الأمة، كما أتى

عيسى ابن مريم في آخر السلسلة الموسوية، فإن موسى ومحمدا - عليهما صلوات الرحمن - متماثلان بنصّ الفرقان، وإن سلسلة هذه الخلافة تشابهُ سلسلةَ تلك الخلافة، كما هي مذكورة في القرآن، وفيها لا يختلف اثنان. وقد اختُتمتْ مئاتُ سلسلةِ خلفاء موسى على عيسى كمثل عِدّة أيام البدر، فكان من الواجب أن يظهَر مسيحُ هذه الأمّة في مدّة هي كمثل هذا القدر، وقد أشار إليه القرآن في قوله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، وإن القرآن ذو الوجوه كما لا يخفى على العلماء الأجلّة، فالمعنى الثاني لهذه الآية في هذا المقام، أن الله ينصر المؤمنين بظهور المسيح إلى مِئِينَ تُشابهُ عِدّتُها أيامَ البدر التامِّ، والمؤمنون أذلّةٌ في تلك الأيام. فانظرْ إلى هذه الآية كيف تشير إلى ضعف الإسلام، ثم تشير إلى كون هلاله بدرًا في أجلٍ مسمّى من الله العلام، كما هو مفهوم من لفظ البدر، فالحمد لله على هذا الإفضال والإنعام.

وحاصل ما قلنا في هذا الباب، أن الفاتحة تبشّر بكون المسيح من هذه الأمّة فضلاً من رب الأرباب. فقد بُشِّرْنا مِن الفاتحة بأئمّةٍ منّا هم كأنبياء بني إسرائيل، وما بُشِّرْنا بنــزول نبي من السماء فتَدبَّرْ هذا الدليل. وقد سمعتَ من قبل أن سورة النور قد بشّرتْنا بسلسلة خلفاء تشابهُ سلسلةَ خلفاء الكليم، وكيف تتمّ المشابهة من دون أن

يظهر مسيح كمسيحِ سلسلة الكليم في آخر سلسلة النبي الكريم. وإنّا آمنّا بهذا الوعد فإنه من رب العباد، وإن الله لا يخلف الميعاد. والعجب من القوم أنهم ما نظروا إلى وعد حضرة الكبرياء، وهل يُوفى ويُنجَز إلا الوعد، فلينظروا بالتقوى والحياء. وهل في شِرعة الإنصاف، أن ينْزل المسيح من السماء ويُخلَف وعدُ مماثلةِ سلسلة الاستخلاف؟ وإنّ تشابُهَ السلسلتين قد وجب بحُكم الله الغيور، كما هو مفهوم من لفظ ﴿كَمَا﴾ في سورة النور.

الباب السابع

في تفسير

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

اعلم، أَسْعَدَك الله، أنّ الله قسم اليهود والنصارى في هذه السورة على ثلاثة أقسام، فرَغَّبَنا في قسمٍ منهم وبشَّر به بفضل وإكرام، وعَلَّمَنا دعاءً لنكون كمثل تلك الكرام، من الأنبياء والرسل العظام. وبقي القسمان الآخران، وهما المغضوب عليهم من اليهود والضالون من أهل الصلبان، فأمَرنا أن نعوذ به مِن أن نلحق بهم من الشقاوة والطغيان. فظهر من هذه السورة أنّ أَمْرَنا قد تُرك بين خوفٍ ورجاء، ونعمةٍ وبلاء، إمّا مشابهةٌ بالأنبياء، وإمّا شُربٌ من كأس الأشقياء. فاتقوا الله الذي عظُم وعيدُه، وجلّتْ مواعيدُه. ومَن لم يكنْ على هدى الأنبياء من فضل الله الودود، فقد خِيفَ عليه أن يكون كالنصارى أو اليهود. فاشتدّت الحاجة إلى نموذج النبيّين والمرسلين، ليدفع نورُهم ظلماتِ المغضوب عليهم وشبهاتِ الضالين. ولذلك وجَب ظهور المسيح الموعود في هذا الزمان من

هذه الأمّة، لأنّ الضالّين قد كثروا فاقتضتْ المسيحَ ضرورةُ المقابلة. وإنكم ترون أفواجًا من القسّيسين الذين هم الضالّون، فأين المسيح الذي يَذُبُّهم إن كنتم تعلمون؟ أمَا ظهَر أثرُ الدعاء، أو تُركتم في الليلة الليلاء؟ أم عُلِّمتم دعاء ﴿صِرَاطَ الَّذِيْنَ﴾، ليزيد الحسرةَ وتكونوا كالمحرومين؟ فالحق والحق أقول، إن الله ما قسم الفِرق على ثلاثة أقسام في هذه السورة، إلا بعد أن أَعَدَّ كلَّ نموذج منهم في هذه الأمّة. وإنكم ترون كثرة المغضوب عليهم وكثرة الضالين، فأين الذي جاء على نموذج النبيين والمرسلين من السابقين؟ ما لكم لا تفكّرون في هذا وتمرّون غافلين؟

ثم اعلم أن هذه السورة قد أخبرتْ عن المبدأ والمعاد، وأشارت إلى قوم هم آخِر الأقوام ومنتهى الفساد، فإنها اختُتِمتْ على الضالّين، وفيه إشارة للمتدبّرين. فإن الله ذكَر هاتين الفرقتين في آخر السورة، وما ذكَر الدجّال المعهود تصريحًا ولا بالإشارة، مع أن المقام كان يقتضي ذِكر الدجّال، فإن السورة أشارت في قولها ﴿الضَّالِّينَ﴾ إلى آخر الفتن وأكبر الأهوال، فلو كانت فتنةُ الدجّال في علم الله أكبرَ من هذه الفتنة، لختَم السورةَ عليها لا على هذه الفِرقة. ففكِّروا في أنفسكم.. أنَسِيَ أصلَ الأمر ربُّنا ذو الجلال، وذكَر الضالّين في مقام كان واجبًا فيه ذكرُ الدجّال؟ وإن كان

الأمر كما هو زعم الجهّال، لقال الله في هذا المقام: غير المغضوب عليهم ولا الدجّال. وأنت تعلم أن الله أراد في هذه السورة أن يحثّ الأمّة على طرق النبيّين، ويحذّرهم من طرق الكَفَرة الفَجَرة، فذكَر قومًا أكملَ لهم عطاءَه، وأتمّ نعماءه، ووعد أنه باعثٌ من هذه الأمّة مَن هو يشابه النبيين، ويضاهي المرسلين. ثم ذكر قومًا آخر تُركوا في الظلمات، وجعل فتنتَهم آخرَ الفتن وأعظمَ الآفات، وأمر أن يعوذ الناسُ كلُّهم به من هذه الفتن إلى يوم القيامة، ويتضرّعوا لدفعِها في الصلوات في أوقاتها الخمسة. وما أشار في هذا إلى الدجّال وفتنته العظيمة، فأيُّ دليل أكبر من هذا على إبطال هذه العقيدة؟

ثم من مؤيِّدات هذا البرهان، أن الله ذكر النصارى في آخر القرآن كما ذكر في أوّل الفرقان، ففكّرْ في: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وفي: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، وما هم إلا النصارى فعُذْ مِن علمائهم بربّ الناس. وإن الله كما ختَم الفاتحةَ على الضالين، كذلك ختم القرآن على النصرانيين، وإن الضالين هم النصرانيون كما رُويَ عن نبيّنا في الدر المنثور، وفي فتح الباري فلا تُعرِضْ عن القول الثابت المشهور، ومُسلَّمِ الجمهورِ.

الباب الثامن

في تفسير الفاتحة بقولٍ كُلّيّ

اعلمْ أن الله تعالى افتتح كتابه بالحمد لا بالشكر ولا بالثناء، لأن الحمد أتمُّ وأكملُ منهما وأحاطَهما بالاستيفاء. ثم ذلك رَدٌّ على عَبَدة المخلوقين والأوثان، فإنهم يحمَدون طواغيتَهم وينسبون إليها صفاتِ الرحمن.

وفي الحمد إشارة أخرى وهي أن الله تبارك وتعالى يقول أيها العباد اعرفوني بصفاتي، وآمِنوا بي لكمالاتي، وانظروا إلى السماوات والأرضين، هل تجدون كمثلي ربَّ العالمين، وأرحمَ الراحمين، ومالِكَ يوم الدين؟

ومع ذلك إشارة إلى أن إلهكم إلهٌ جمَع جميعَ أنواع الحمد في ذاته، وتفرّدَ في سائر محاسنه وصفاته. وإشارة إلى أنه تعالى منـــزَّهٌ شأنُه عن كل نقص وحُؤولِ حالةٍ ولحوقِ وصمةٍ كالمخلوقين، بل هو الكامل المحمود، ولا تحيطه الحدود. وله الحمد في الأولى والآخرة ومن الأزل إلى أبد الآبدين. ولذلك سمّى الله نبيَّه أحمدَ، وكذلك سمّى به المسيحَ الموعود ليشير إلى ما تعمّدَ.

وإن الله كتب الحمد على رأس الفاتحة، ثم أشار إلى الحمد في آخر هذه السورة، فإن آخرها لفظ ﴿الضَّالِّينَ﴾، وهم النصارى الذين أعرضوا عن حمد الله وأعطَوا حقَّه لأحدٍ من المخلوقين. فإن حقيقة الضلالة هي تركُ المحمود الذي يستحقّ الحمد والثناء، كما فعل النصارى ونحتوا من عندهم محمودًا آخر وبالغوا في الإطراء، واتّبعوا الأهواء، وبعُدوا من عين الحياة، وهلكوا كما يهلك الضالّ في المَوماة. وإن اليهود هلكوا في أوّل أمرهم وباءوا بغضبٍ من الله القهّار، والنصارى سلكوا قليلا ثم ضلّوا وفقدوا الماء فماتوا في فلاة من الاضطرار.

فحاصل هذا البيان أن الله خلَق أحمدَين في صدر الإسلام وفي آخر الزمان، وأشار إليهما بتكرار لفظ الحمد في أول الفاتحة وفي آخرها لأهل العرفان. وفعل كذلك ليردّ على النصرانيين، وأنزل أحمدَيْن من السماء ليكونا كالجدارَيْن لحماية الأولين والآخرين.

وهذا آخر ما أردنا في هذا الباب، بتوفيق الله الراحم الوهاب. فالحمد لله على هذا التوفيق والرِفاء، وكان مِن فضله أنّ عَهْدَنا قُرِنَ بالوفاء، وما كان لنا أن نكتب حرفًا لولا عونُ حضرة الكبرياء. هو الذي أَرَى الآياتِ، وأنزل البيّناتِ، وعصم قلمي وكَلِمي من الخطأ، وحفِظ عِرضي من الأعداء. وإنه تبوّأ منْزِلي، وتجلّى عليّ وحضر

محفلي واجتبائي لخلافته، وأبقى مَرعاي على صرافته. وزكّاني فأحسنَ تزكيتي، وربّاني فبالغَ في تربيتي. وأنبتَني نباتًا حسنًا، وتجلّى عليّ وشغَفني حُبًّا، حتى إنني فرغتُ من عداوة الناس ومحبّتهم، ومدحِ الخَلق ومذمّتهم، والآن سواء لي مَن عاد إليّ أو عادى، ورادَ مِن ضِياعي أو رادى. وصارت الدنيا في عيني كجاريةٍ بُدئتْ، واسودّ وجهها وصفوفُ الحسنِ تقوّضتْ، وشَمَمُ الأنفِ بالفُطْس تبدّلَ، ولَهَبُ الخدودِ إلى النَمْشِ انتقلَ، فنجوتُ بحول الله من سطوها وسلطانها، وعُصِمتُ من صولة غُولها وشيطانها. وخرجتُ من قوم يتركون الأصل ويطلبون الفرع، ويضيعون الورع لهذه الدنيا ويُجبِئون الزرع. ويريدون أن يحتكئ قولُهم في قلوب الناس، مع أنهم ما خلصوا من الأدناس. وكيف يُترقّب الماء المَعين مِن قِرْبةٍ قضِئتْ، والخلوصُ والدينُ من قريحةٍ فسدتْ؟ وكيف يُعَدُّ الأسير كمُطلَقٍ من الإسار؟ وكيف يدخُل المُقرِف في الأحرار؟ وكيف يتداكأُ الناس عليه، وهو خبيث وخبيثٌ ما يخرج مِن شفتَيه؟ وإنّ قلمي بُرِّئَ من أدناس الهوى، وبُرِيَ لإرضاء المولى. وإن لِيَراعي أثر من الباقيات الصالحات، ولا كأثرِ سنابِكِ المسوَّمات. ونحن كُماةٌ لا نَزِلُّ عن صهوات المطايا، وإنّا مع ربّنا إلى حلول المنايا. وإن خيلنا تجُول على العدا كالبازي على العصفور، أو كالأجدَل على الفأر المذؤور.

رُوَيدَ أعدائي بعضَ الدعاوي، ولا تدّعوا الشَبَعَ مع البطن الخاوي. أتقومون للحرب برماح أُشرعتْ، ولا ترون إلى حُجُبِكم وإلى سلاسل ثُقّلتْ. ترون غمراتِ الندم ثم تقتحمونها، وتجِدون غَمّاءَ الذلّ ثم تزورونها. وإنّما مَثلكم كمثلِ عَنْزٍ تأكل تارة من حشيشٍ وتارة من كلاء، ولا يطيع الراعي من غير خلاء. وكل ما هو عندكم من العلم فليس هو إلا كالكدوس المَدُوس الذي لم يُذَرّ، وخالَطَه روثُ الفَدَادين وغيرها مما ضَرَّ. ثم تقولون إنّا لا نحتاج إلى حَكَمٍ من السماء، وما هي إلا شِقوة، ففكّروا يا أهل الآراء.

وإني أعلمُ كعلم المحسوسات والبديهيات، أني أُرسلتُ من ربي بالهدايات والآيات، وقد أُوحيَ إليّ إلى مدّة هي مدّةُ وحيِ خاتمِ النبيين، وكُلّمتُ قبل أن أَزْنَأَ من الأربعين، إلى أن زَنَأْتُ للستين. وهل يجوز تكذيب رجلٍ ضاهتْ مدّتُه مدّةَ نبيّنا المصطفى؟ وإن الله قد جعل تلك المدّة دليلا على صدق رسوله المجتبى، وسمعتُ إنكاره من بعض الناس، وما قبلوا هذا الدليل بلمّة من الوسواس الخنّاس، فاكتَلأَتْ عيني طول ليلي، وجرت مِن عيني عينُ سيلي، فكلّمني ربي برحمته العظمى، وقال قُلْ: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾. فله الحمد وهو المولى، وهو ربّي في هذه وفي يومٍ تُحشرُ كلُّ نفسٍ لتُجزَى.

رَبِّ انزِلْ على قلبي، واظهَرْ مِن جيــبي بعد سلبي، واملأْ بنور العرفان فؤادي. ربّ أنت مُرادي فآتِني مرادي، ولا تُمِتْني موتَ الكلاب، بوجهك يا رب الأرباب. رب إني اخترتك فاختَرْني، وانظرْ إلى قلبي واحضُرْني، فإنك عليم الأسرار، وخبير بما يُكتَم من الأغيار. ربّ إنْ كنتَ تعلمُ أن أعدائي هم الصادقون المخلصون، فأهلِكْني كما تُهْلَكُ الكذّابون، وإنْ كنتَ تعلم أني منك ومن حضرتك، فقُمْ لنُصرتي فإني أحتاج إلى نصرتك، ولا تُفوِّضْ أمري إلى أعداء يمرّون عليّ مستهزئين، واحفظْني من المعادين والماكرين. إنك أنت راحي وراحتي، وجَنّتي وجُنّتي، فانصرْني في أمري واسمعْ بكائي ورُنّتي، وصَلِّ على محمدٍ خير المرسلين، وإمام المتّقين، وهَبْ له مراتبَ ما وهبتَ لغيره من النبيين. ربّ أَعْطِه ما أردتَ أن تُعطيني من النعماء، ثم اغفِرْ لي بوجهك وأنت أرحم الرحماء. والحمد لك على أن هذا الكتاب قد طُبع بفضلك في مدّةِ عِدّةِ العَين، في يوم الجمعة وفي شهرٍ مباركٍ بين العيدَين. ربّ اجعلْه مباركًا ونافعًا للطُلاّب، وهاديًا إلى طريق الصواب، بفضلك يا مُجيبَ الداعين. آمين ثم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

✪ لقد ظهرت معجزة عظيمة بفضل الله تعالى

ألفَ ألف شكر أشكر الله القادر الأحد، الذي أكـرمني بفـتح عظيم في هذا الميدان؛ فرغم أنني واجهت في هذه الأيـام الـسبعين عراقيل عديدة، إذ مرضت أثناءها بضع مرات بمرض خطر، كمـا أصيب بعض الأقارب أيضا بالأمراض، إلا أن هـذا التفـسير قـد اكتمل. ومَن تأمّلَ في أنني دعوتُ آلاف المعارضين للمبارزة ثم ألّفت هذا التفسير مقابلهم لاستيْقَنَ أنه معجـزة عظيمـة حتمـا. وإني لأتساءل: إذا لم تكن هذه معجزة فمـن الـذي أعجـزَ المـشايخَ المعارضين عن كتابة التفسير حين دُعُوا لهذه المعركة بكلمات تـثير غيرهم؟ ومن الذي جعل شخصًا مـصابًا بـالأمراض والأعـراض الجسدية - أي أنا العبد الضعيف الذي هو جاهل في نظر المـشايخ المعارضين ولا يعرف حسب رأيهم كلمة واحدة صـحيحةً مـن العربية- قادرا على كتابة هذا التفسير العديم النظير بالعربية الفصيحة

✪ من هنا إلى آخر الكتاب ترجمة لما ألحقه حضرته عليه السلام بهذا الكتاب من كلام باللغة الأردية. (اللجنة).

والبليغة، والذي لن يستطيع المشايخ المعارضون أن يأتوا بمثله ولو أصيبوا بصدمة دماغية في محاولتهم للكتابة. لو كان هذا الأمر بوسع المشايخ المعارضين، أو لو كان نصر الله حليفهم في هذا المضمار، لكان من المفروض أن يُنشَر حتى الآن ألفُ تفسير على الأقل من قِبلهم بحذائي. فما هو جوابهم الآن يا ترى، فقد دعوتهم لكتابة التفسير معتبرًا إياه معيارا للحُكم بيننا وحددتُ لهم مدة سبعين يوما - وهي ليست بقصيرة - وكنت وحيدا وهم ألوف ويُسمَّون علماء العربية وبلغاءها، ومع ذلك فشلوا في كتابة التفسير؟ لو أنهم أعدّوا هذا التفسير وقدّموا الأدلّة ضدّي من سورة الفاتحة لجاءهم الناس أفواجًا. فأيّ قوة خفية كبَّلت أيدي هؤلاء الآلاف وكلَّلت أذهانهم ونزعت منهم العلم والفهم؟ ومن جانب آخر شهدتْ على صدقي بشهادة سورة الفاتحة، وختمتْ على قلوبهم فجعلتْها بليدة وعديمة الفهم، وفضحتْهم أمام ألوف الناس بكشف ثيابهم الوسخة وألبستْني خلعة بيضاء ناصعة نصوع الثلج، وأجلستني على كرسي العزّ والشرف، وخلعتْ عليّ **لقب العزة** من سورة الفاتحة. وما أدراك ما ذلك اللقب؟ إنما هو: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وانظروا إلى فضل الله ورحمته، فقد اشتُرِطَ على كِلا الفريقين أن يؤلف هذا التفسير في أربعة أجزاء في سبعين يوما، ولكن هؤلاء

الألوف لم يستطيعوا تأليف جزء واحد، أما أنا فلم يوفّقني الله تعالى لتأليف التفسير في أربعة أجزاء فحسب، بل ألّفت اثني عشر جزءا منه.

هنا أسأل المشايخ المعارضين، أليست هذه معجزة؟ وما مبرر عدم اعتبارها معجزة؟ لا أحد في الدنيا يرضى بالذلة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإذا كانت كتابة التفسير بمقدورهم فلماذا لم يقدروا على ذلك؟ ألا تحضُّ الكلمات التي نشرتُها في الإعلانات أن الفريق الذي لا يقدر على كتابة التفسير في سبعين يوما سيُعَدُّ كاذبا.. ألا تحضّ أيَّ غيور على أن يحرّم على نفسه أيَّ عمل آخر ليكمل العمل الذي يشكّل له تهديدا حتى لا يُعَدَّ من الكاذبين؟ ولكنْ أَنَّى لهم أن يواجهوا؟ وكيف يمكن أن يُرَدّ قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾؟ لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يُتمّ عليهم الحجة للأبد بأنهم لا يستطيعون أن ينجزوا شيئا مقابل شخص واحد، وهم ألوف ويُدعَون علماء ومشايخ، ومع ذلك لا يرتدعون عن تكفيره. ألم يكن محتوما عليهم أن يكونوا كاملين علمًا قبل أن يتجاسروا على التكفير؟ لا جرم أن معارضة المبعوث الرباني - الذي يُري آية تلو آية - بالاعتماد على فتوى هؤلاء الألوف الذين آلت حالتهم إلى

أنهم لم يقدروا مجتمعين على مواجهة شخص واحد إذ لم يستطيعوا تأليف التفسير في أربعة أجزاء، إنما هو فعل الأشقياء حقًا.

وأقول في الأخير إن من دواعي الشكر أيضا أنه قد تحققت بهذه المناسبة إحدى نبوءات النبي ﷺ أيضا، وبيانها أنني اضطررتُ في الأيام السبعين هذه لجمع الصلوات - التي يجوز جمعها- إما نتيجةً للأمراض التي لازمتني، أو تعويضًا عن انقطاعي أيامًا عديدة عن كتابة التفسير نتيجة الأمراض. وبذلك قد تحققت نبوءة النبي ﷺ الواردة في "الدر المنثور"، و"فتح الباري"، و"تفسير القرآن العظيم لابن كثير"، حيث جاء فيها: "تُجمَع له الصلاةُ".. أي للمسيح الموعود.

فليخبرْنا الآن المشايخ المعارضون، ألم تتحقق هذه العلامة الخاصة بالمسيح الموعود بتحقُّق هذه النبوءة النبوية؟ وإلا فليأتوا بنظير شخص ادّعى أنه هو المسيح الموعود ثم جمَع بين الصلوات شهرين، أو فليأتوا بنظير شخص كهذا وإن لم يقم بهذه الدعوى أيضا. **والسلام على من اتبع الهدى.**

المعلن ميرزا غلام أحمد القادياني

٢٠ شباط/ فبراير ١٩٠١م

